المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة طيبة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم العلوم الاجتماعية (تاريخ)



معركة حمص بين المماليك والمغول

(٦٨٠هـ /١٢٨١م)

أسبابها وأحداثها ونتائجها

بحث مقدم لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعـداد الطالبة

حنان محمد فالح الجهني

إشـــراف

د. فؤاد عبدالرحيم الدويكات

دكتوراه في التاريخ الإسلامي / كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة طيبة

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

المدينة المنورة

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
Taibah Universit
Faculty : Psychology and sociology
Department : Socety science



HOMS BATTLE BETWEEN THE MAMLUKS AND THE MONGOLS (٦٨٠ AH / ١٢٨١ AD)

CAUSES, EVENTS AND RESULTS

A Dissertation Submitted in partial fulfillment of the Requirements for the Master Degree in Islamic history

By :

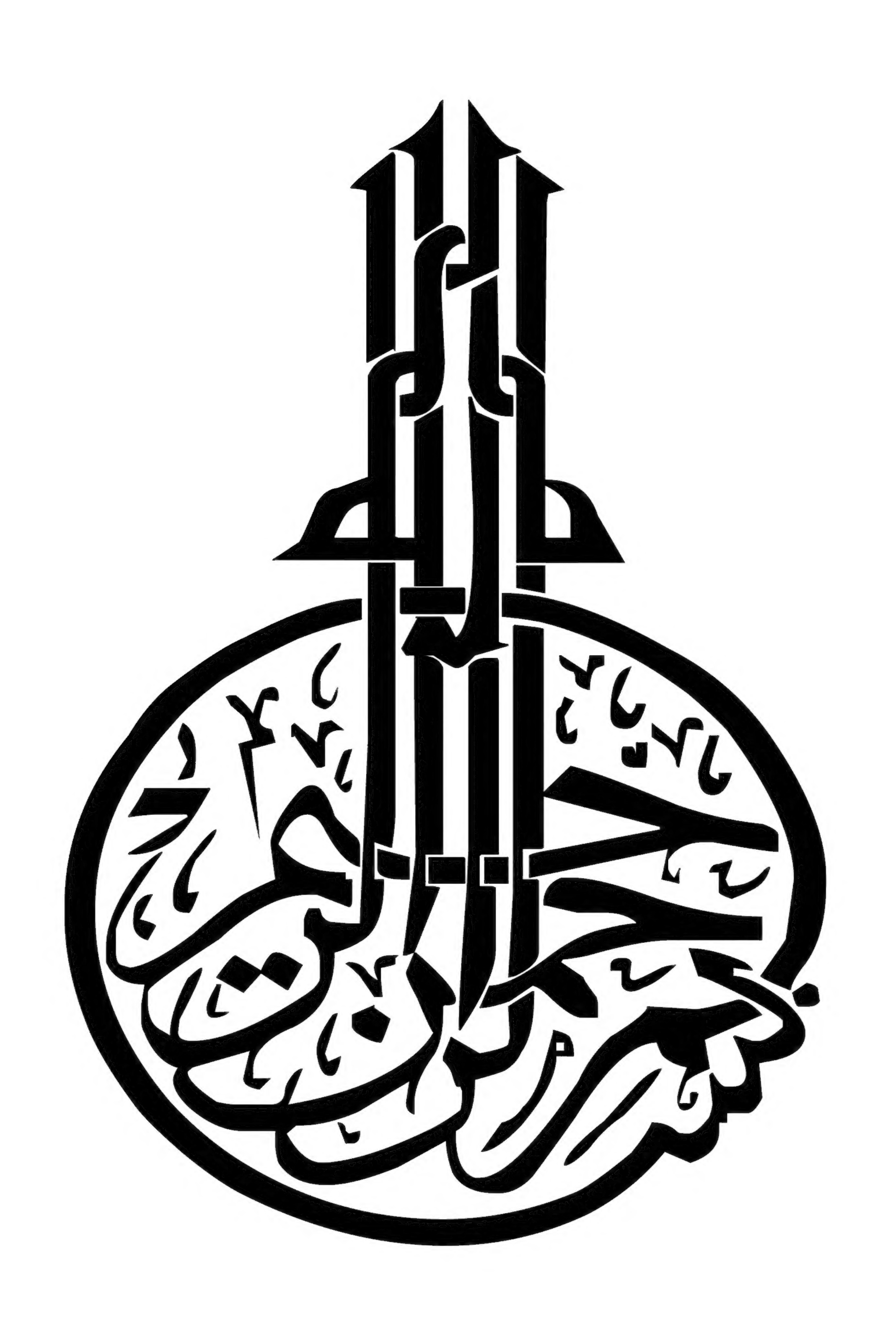
Hanan Mohammed Al-Johani

Supervisor :

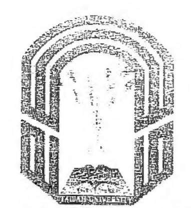
Dr. Fouad Abdul Rahim Aldoakat

١٤٣٣A.H / ٢٠١٢A.D

Al Madina Al Monawara


بسم الله الرحمن الرحيم

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
TAIBAH UNIVERSITY



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة طيبة

عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (١٥)

ثالثاً: قرار لجنة المناقشة(*):

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين... وبعد:

ففي يوم الأحد: ١٤٣٤/٥/١٩هـ، اجتمعت اللجنة المشكلة لمناقشة الطالبة: **حنان بنت محمد فالح الجهني**، في أطروحتها لرسالة الماجستير المعنونة: (معركة حمص بين المماليك والمغول ٦٨٠هـ / ١٢٨١م أسبابها أحداثها ونتائجها) وبعد مناقشة علنية للطالب من الساعة ...١٠ العاشرة صباحاً... إلى الساعة الواحدة ظهراً.... وبعد المداولة والمناقشة، اتخذت اللجنة القرار التالي:

- ☑ قبول الرسالة والتوصية بمنح الدرجة.
- ☐ قبول الرسالة مع إجراء بعض التعديلات، دون مناقشتها مرة أخرى[1].
- ☐ استكمال أوجه النقص في الرسالة، وإعادة مناقشتها[2].
- ☐ عدم قبول الرسالة[3].

رابعاً: تعقيبات أخرى:

واللجنة إذ تقرر ذلك، توصي الطالب بتقوى الله في السر والعلن، والحمدلله رب العالمين.

المشرف والمقرر	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
د. فؤاد عبدالرحيم الدويكات	د. أحمد بن هاشم البدرشيني	د. عائشة بنت مرشود الحربي

* يعبأ من قبل مقرر اللجنة ويوقع من بقية الأعضاء.

[1] في حالة الأخذ بهذه التوصية يفوض أحد أعضاء لجنة المناقشة بالتوصية بمنح الدرجة بعد التأكد من الأخذ بهذه التعديلات في مدة لاتتجاوز ثلاثة أشهر من تاريخ المناقشة، ولمجلس الجامعة الاستثناء من ذلك بناء على توصية لجنة الحكم ومجلس عمادة الدراسات العليا.

[2] في حالة الأخذ بهذه التوصية يحدد مجلس عمادة الدراسات العليا بناءً على توصية مجلس القسم المختص موعد إعادة المناقشة، على ألا يزيد ذلك على سنة واحدة من تاريخ المناقشة الأولى.

[3] في حالة الاختلاف في الرأي لكل عضو من أعضاء لجنة الحكم على الرسالة حق تقديم ما له من مرئيات مغايرة أو تحفظات في تقرير مفصل إلى كل من رئيس القسم وعميد الدراسات العليا، في مدة لاتتجاوز أسبوعين من تاريخ المناقشة.

الرقم: .... التاريخ: .... المشفوعات: ....

تليفون: ٨٤٧٠٨٥١، فاكس: ٨٤٧٤٩٣٨، ص.ب: ٣٠٠٣٨ المدينة المنورة
Tel : 8470851 – Fax : 8474938 - P. O . Box : 30038 Madinah Al-Munawarah

الملخص باللغة العربية

تناولت هذه الدراسة البحث في معركة حمص بين المماليك والمغول (٦٨٠هـ/١٢٨١م)أسبابها وأحداثها ونتائجها.

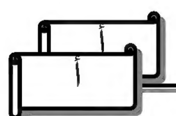
جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول سبقها فصل تمهيدي تحدث عن قيام دولة المماليك وأهمية معركة عين جالوت وهزيمة التتار فيها.

قدم البحث في فصله الأول عرضاً شاملاً عنَّ الأحوال السياسية للماليك والمغول ومملكة أرمينية الصغرى قبيل معركة حمصً وكشف في هذا المجال عن أحوال دولة المماليك البحرية في عهد السلطان بيبرس ،ثم أشير لسياسة بيبرس الخارجية ،ثم تناول علاقات المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها،ثم وفاة بيبرس وظهور قلاوون ونتائجه.

وفي الفصل الثاني أسباب معركة حمص الكبرى وذلك بالحديث عن الاسباب غير المباشرة لمعركة حمص،ثم الأسباب المباشرة لمعركة حمص الكبرى .

ومتابعة للتطورات عرض الفصل الثالث لمعركة حمص الكبرى وسير أحداثها ،وفيه تم تناول جهود قلاوون في توحيد الصف الإسلامي ،ثم تحالف المغول مع الأرمن ونتائجه ،ثم جغرافية حمص ،ثم الاشتباك بين الجانبيين ونتائجه ،ثم تحركات الجيش الإسلامي ،ثم حالة كل من الجيش المملوكي والمغولي ،ثم الاشتباك مع المغول ،ثم أحوال دمشق ومصر اثناء موقعة حمص ،ثم موقف كتبغا من الهزيمة ،وأخيراً ماقيل شعراً عن معركة حمص .

وبحث الفصل الرابع من الدراسة في انتصار المسلمين في معركة حمص أسبابه ونتائجه فتناول البحث اسباب انتصار المسلمين في معركة حمص ثم نتائج معركة حمص .





المقدمة

أهمية موضوع البحث

أسباب اختيار البحث

أهداف البحث

الدراسات السابقة

مصطلحات البحث

منهج البحث



المقدمة

الحمد الله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، أما بعد:

سطع نجم دولة المماليك(١)، بعد أن نجحت في وقف اجتياح التتار لدولة الخلافة العباسية، وبرز االسلطان "قطز" هازم التتار في عين جالوت سنة٦٥٨هـ/١٢٦٠م ومن بعده بيبرس البندقداري المؤسس الثاني لدولة المماليك البحرية(٢)؛ الذي اهتم بتنمية القوة العسكرية لدولته ليواجه

---

(١) دوله المماليك: قامت على أكتاف الرقيق الذين جُلِبوا في الأصل من مختلف البلدان لأجل الحروب، وحماية السلاطين، وقد بذلت هذه الدولة جهود عظيمة في الدفاع عن الإسلام، وإقامة مجده وتنقسم الدولة المملوكية الى قسمين: عصرالمماليك البحرية ٦٤٨ ـ ٧٩٢ هـ. والثاني: عصرالمماليك الجراكسة أو البرجية ٧٩٢ ـ ٩٢٣ هـ. لمزيد من التفاصيل انظر: احمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام، دار النهضة العربية،بيروت،١٤٠٦هـ،ص١١-٢١.

(٢) هم مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذين زاد عددهم، وزادت تعدياتهم فضج منهم السكان فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة عام ٦٣٨ هـ/١٢٤٠م فعرفوا بالمماليك البحرية، حكم هؤلاء المماليك البحرية مصر مدة ١٤٤ سنة (٦٤٨ ـ ٧٩٢هـ)، بدأت بحكم عز الدين أيبك. وقد تمثل هذا الحكم في أسرتين فقط، وهما أسرة الظاهر بيبرس البندقداري، وقد دام حكمها مدة عشرين سنة (٦٥٨ ـ ٦٧٨هـ)، أمّا الأسرة الثانية فهي أسرة المنصور قلاوون وقد استمر أمرها ١١٤ سنة (٦٧٨ ـ ٧٩٢ هـ)، وهذه الحقبة هي المقصودة بالبحث. ولمزيد من التفاصيل انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ،تحقيق ايمن فؤاد سيد ،الفرقان للتراث ،لندن،١٩٩٥م،ج٣،ص١٧٣. ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،قدم له وعلق عليه محمد حسن،المؤسسة المصرية العامة،(د.ت): ج٦،ص٣٢٠. ابن اياس: بدائع الزهور في

أعداءها المحيطين بها، ومن ثم السلطان سيف الدين قلاوون الذي نجح في هزيمة التتار في موقعة حمص.

تعتبر "معركة حمص" التي جرت عام٦٨٠هـ/١٢٨١م من المعارك الفاصلة في تاريخ دولة المماليك البحرية؛ لما لها من نتائج وآثار، فبرغم أن معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أوقفت الزحف المغولي، والحقت بهم الهزيمة للمرة الأولى؛ إلا أنها لم تقض تماماً على خطرهم، وبعد أن سعت الكنيسة الغربية وعلى رأسها البابوية إلى استقطاب المغول ونشر النصرانية بينهم، وحرص الإمارات الصليبية في الشرق الأدنى الإسلامي على إقامة تحالف قوي بينهما ضد المسلمين، جاءت هذه المعركة لتكسر شوكتهم، وتضع حداً للخطر المغولي على الشام ومصر ، وتقضي على الآمال البابوية والصليبية، وينتشر الإسلام انتشاراً واسعاً بين المغول، بعدما أيقنوا قوة المسلمين وعظمتهم، وبعدما تلقوا منهم ضربة موجعه في معركة عين جالوت، وتلتها ضربة قاضية في معركة حمص.

وقائع الدهور ،تحقيق =محمد مصطفى ،الهيئة المصرية العامة ،القاهرة،١٩٨٤م،ج١،قسم١،ص٢٦٩. وراجع فيما يتعلق بهذا الموضوع الخاص بتسمية الماليك البحرية: احمد مختار العبادي،قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام،ص٩٦-٩٩. سعيدعاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية،القاهرة،١٩٦٥م،ص٥.

أهمية موضوع البحث:

تُعد معركة حمص بين المماليك والمغول وحليفهم ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، والتي انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقا على المغول، وكانت هذه هي المرة الثانية بعد معركة عين جالوت التي يهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيزخان، أدت المعركة لانحسار نفوذ المغول عن بلاد الشام وخروجهم منها نهائياً، وإيقاف المد المغولي الكاسح الذي أسقط الخلافة العباسية، كما أدت المعركة إلى تعزيز موقع دولة المماليك كأقوى دولة إسلامية في ذاك الوقت لمدة قرنين من الزمان، أي إلى أن قامت الدولة العثمانية، كما ترجع أهمية معركة حمص بين المماليك والمغول إلى كونها من الموضوعات المهمة التي توضح براعة المسلمين العسكرية في زمن لم تكن التطورات العسكرية الحديثة قد ظهرت بعد. خاصةً أن المسلمين نجحوا في تسخير كل الإمكانات المتاحة لهم، ونجحوا في الانتصار بإذن الله على جيش المغول الكبير، وما ترتب على ذلك من تحقيق الانتصار على الصليبيين في كثير من المواجهات بينهم.

أسباب اختيار البحث:

توافر لدى الباحثة جملة من الأسباب دفعها لأختيار هذا الموضوع ،نجملها فيما يلي:

١- عدم وجود دراسة علمية متخصصة حول هذه المعركة.

٢- دراسة الموضوع دراسة نقدية تحليلية.

٣- الإسهام في إثراء المكتبة التاريخية، بدراسة معركة من المعارك الفاصلة في تاريخ المسلمين.

٤- إبراز ما تناولته كتابات المؤرخين القدامى، والمحدثين عن معركة حمص الكبرى.

٥- كتابات المؤرخين المحدثين عن معركة حمص جاءت ضمن الحديث عن تاريخ المماليك عامة، وعلاقتهم بالصليبيين خاصة، ولهذا جاءت إشارتهم عن هذه المعركة إشارة عابرة، مثلها مثل الكثير من المعارك التي جرت بين المماليك والصليبيين.

٦- حاجة المسلمين للوقوف على مثل هذه الأحداث العظيمة وأخذ العبرة منها.

أهداف البحث:

١- الدراسة النقدية التحليلية لمعركة حمص الكبرى.

٢- تسليط الضوء على ملامح هذه الحقبة التاريخية من العصر المملوكي من خلال دراسة العلاقات بين المماليك والمغول وحليفهم ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى؛ منذ انتهاء معركة عين جالوت وحتى قبيل أحداث معركة حمص، وكذلك ما تبع هذه المعركة.

٣- دراسة عوامل النصر لهذه المعركة.

٤- إبراز دور القائد في توحيد الصف، والقضاء على الفرقة.

٥- بيان دور العلماء والأئمة في ترسيخ عقيدة الجهاد.

٦- الكشف عن أسباب المعركة المباشرة وغير المباشرة.

٧- وصف أحداث المعركة بحيث يشمل جوانبها المختلفة.

٨- ذكر أبرز الشخصيات البطولية، ودور بعض القبائل العربية التي أغفلها المؤرخون.

٩- توضح أبرز العلاقات الداخلية والخارجية من جانبي المغول والمماليك قبل وبعد معركة حمص.

١٠- التعرف على خطط وأساليب المماليك العسكرية ضد المغول، والتعرف على فنون الحرب والقتال التي ابتكرها المماليك في حروبهم ضد المغول.

١١- التعرف على أهم نتائج هذه المعركة.

الدراسات السابقة:

لقد تناول هذا الموضوع العديد من كُتاب التاريخ المرموقين، بيْد أن كتاباتهم عن معركة حمص جاءت ضمن الحديث عن تاريخ المماليك عامة وعلاقتهم بالصليبيين خاصة، ولهذا جاءت إشارتهم عن هذه المعركة إشارة عابرة مثلها مثل الكثير من المعارك التي جرت بين المماليك والصليبيين، **ومن بين هؤلاء الكُتَّاب**:

١- سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٥م.
٢- سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت.
٣- شفيق جاسر أحمد محمود، في بحثه: المماليك البحرية وقضاؤهم على الصليبيين في الشام، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢١هـ.
٤- عباس إقبال: تاريخ المغول، ترجمة: عبدالوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي،٢٠٠٠ م.
٥- محمد التنوخي: بلاد الشام إبان الغزو المغولي، طبعة: دار صادر، بيروت،(د.ت).
٦- السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

مصطلحات البحث:

تناول البحث تعريفات بعض المصطلحات، وأبرزها:

١- **أجناد الحلقة:** محترفو الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم أقرب فئات المماليك إلى الجيوش النظامية في العصور الحديثة، ومرتباتهم من ديوان الجيش(١).

٢- **أمير خمسة:** اصغر مرتبة من مراتب الأمراء(٢)، ويتبعه خمسة فرسان، ولكنه يقود في الحرب عدداً أكبر من ذلك(٣)، ويعتبر أصحابها من كبار الأجناد، وكانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب التشريف(٤).

٣- **أمير طبلخاناه:** مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في مصر المملوكية، وصاحبها يلي أمير مائة مقدم ألف في الدرجة،

---

(١) أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، ١٩٨٣م،ج٤، ص٢٠. وانظر ايضاً حسن الباشا :الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية،دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٦٥م،ج١ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥-١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٤،ص١٤-١٥.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٦ -١٥.

وسمي أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه؛ كما يفعل السلاطين وأمراء المئين، ويطلب على أمير طبلخاناه أيضا أمير أربعين، بمعنى أن يكون في خدمته أربعين مملوك، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين[١].

٤- **أتابك (أطابك):** هما (أتا) بمعنى أب، و(بك) بمعنى أمير، وأطابك بمعنى الولد الأمير، أو أمير أب، وهو مقدم العسكر والقائد العام لجيش المماليك[٢].

٥- **أمير عشرة:** إحدى رتب الأمراء في عصر المماليك، وهي في الدرجة الثالثة بعد أمير مائة، وأمير أربعين، ويأتي بعده أمير خمسة.

٦- **أمير علم:** هو الذي يتولى أمر الأعلام والسناجق والرايات السلطانية، ويشترط فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمه لكل موكب من المواكب السلطانية[٣].

٧-**أمير مائة مقدم ألف:** أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك[٤]، وهذه مرتبة خاصة بأرباب السيوف، ويكون في

(١) حسن الباشا:الفنون الاسلامية،ج١،ص٢٣١.
(٢) القلقشندي:صبح الاعشى،ج٤، ص١٨.

(٣)المصدر نفسه:ج٤،ص٨،ج٥،ص٤٥٦-٤٥٨.
(٤) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١،ص٣٤١.

خدمة صاحبها مائة مملوك، وهو في نفس الوقت مقدماً على ألف جندي من أجناد الحلقة في وقت الحرب[١].

٨-**الباشورة**: وجمعها بواشير، وهي سد من التراب يمنع وصول الخيالة والرجال والسهام إلى موضع المحاربين[٢].

٩-**الترابي**: الأطفال من أسرى الحروب[٣].

١٠-**الجاليش**: راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تُحمل في المواكب السلطانية، لاسيما المواكب الخاصة بالحرب، وكان المماليك يطلقونه أيضا على الطليعة من الجيش[٤].

١١-**جرخ**: جمعها جروخ، وهي آله حربية تستعمل لرمي السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجند: جرخي[٥].

---

(١) حسن الباشا:الفنون الاسلامية،ج١،ص٢٤٩-٢٥٩.
(٢) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١،ص١٥٠.
(٣) المقريزي:المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار،القاهرة،١٢٧٠هـ،ج٢، ص١٩٤.

(٤) المقريزي:المواعظ والاعتبار،ج١،ص٦٢٨،يوسف بن تغري بردي الاتابكي جمال الدين أبو المحاسن:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،علق عليه محمد حسين،شمس الدين ،طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة،القاهرة،١٩٩٢م،ج٧،ص١٠١.

(٥) المقريزي:المواعظ والاعتبار،ج١، ص١٠٠٣.

١٨-**جريدة**: فرقة من العسكر الخيالة لا رجاله فيها، ويقال: (ركب السلطان جريدة) إن ركب على وجه السرعة دون أن يصطحب معه أثقالاً أو حشداً[١].

١٣-**جنب**: وجمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها[٢].

١٤-**الحركاه**: بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة، ويغطى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء للوقاية من البرد[٣].

١٥-**الخوخة**: باب صغير في بوابة كبرى لسور، وجرت العادة أن يخصص هذا الباب الصغير للاستعمال اليومي، فلا تكون حاجة إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الاقتضاء أو الضرورة، وقد يقصد بالخوخة فتحه في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى[٤].

---

(١) المقريزي:المواعظ والاعتبار،ج١،ص١٠٦.
(٢) المصدر نفسه:ج١،ص٣٤١
(٣) المصدر نفسه:ج١،ص٢٣٥.
(٤) المصدر نفسه:ج٢،ص٢١٥.

١٨-**الزراق:** وجمعه زرّاقون، أي رامي النفط من الزرّاقه وهي الأنبوبة التي يزرق بها النفط[١].

١٧-**الزردخاناه:** بيت الزرد أي بيت السلاح أو مستودع السلاح، وبها من السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد المانع....، وفي كل سنة يحمل إليه مايعمل بخزائن السلاح من الأسلحه، يجعل على رؤوس الحمالين، ويزف إلى القلعة، ويكون يوماً مشهوداً، وفي هذه الأسلحة خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتحديد المستعملات، جماعة كثيرة[٢].

١٨-**طلب:** لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، ويطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين؛ ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة من الجيش، وكان أول أستعمال لهذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين الأيوبي [٣].

١٩-**عرادة:** وجمعها عرادات، وهي آلة حربية أصغر من المنجنيق، ترمي بالحجارة إلى المرمى البعيد[٤].

٢٠-**العصابة:** وجمعها عصائب، وهي راية عظيمة من حرير أصفر، مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان، تحمل في المواكب السلطانية[١].

(١) المقريزي:المواعظ والاعتبار،ج١،ص٥٩٨.
(٢) القلقشندي:صبح الاعشى،ج٤،ص١٢.
(٣) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١،ص٢٤٨
(٤) المصدر نفسه:ج١،ص٦٢.

٢١-**علم دار**: هو الذي يحمل العلم مع السلطان في المواكب وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو العلم، والثاني فارسي وهو دار، والمعنى ممسك[٢].

٢٢-**الكراع**: ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونه[٣].

٢٣-**الكشاف**: وجمعه الكشافة، جماعة معينة من العسكر تقوم بكشف أخبار العدو[٤].

٢٤-**مكاحل البارود**: هي المدافع التي يرمى منها النفط، وهي أنواع[٥].

٢٥-**مهمندار**: وظيفته تلقي الرسل القادمين إلى الدولة من دولة أخرى، وإنزالهم في دار الضيافة، والإشراف على القيام بأمرهم[٦].

٢٦-**أمير شكار**: موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور

وغيرها، وكذلك كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته[٧].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١، ص ٣٥٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤،ص٢٢ ، ج٥،ص ٤٥٦ - ٤٦٣.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١، ص ٦٢٠.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٨٥.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٢٧٧.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢-٥٩، ج٥، ص٤٥٩؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار: ج٣،ص٣٥٥.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى،ج٤، ص ٢٢- ج٥،ص ٤٦١.

٢٧-**البندقدار**: هي لفظ فارسي مركب معناه: حامل غرارة، أي كيس البندق خلف الأمير أو السلطان، وقد سمي الظاهر بيبرس باسم البندقداري لأنه كان في أول أمره مملوكا للأمير آيدكين البندقدار ثم انتقل إلى الملك الصالح أيوب، وصار من مماليك البحرية[١].

٢٨-**الغاشية**: هي سرج من أديم مخرز بالذهب تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحافلة، في الميادين والأعياد والحروب وغيرها.

٢٩-**المهتار**: لقب مشتق من اللغة الفارسية، وأصله في الفارسية مهتر، وهو من طائفة أرباب الوظائف من طائفة أرباب الخدم في دولة المماليك، وهو يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت السلطانية: فيقال مثلاً: مهتار الشراب خاناه، ومهتار الركاب خاناه[٢].

٣٠-**منجنيق**: مفرد مجانيق، وهو آله حربية لقذف الحجارة إلى مسافات بعيدة[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ج٥،ص٤٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٥،ص٤٧٠.

(٣) القلقشندي: المصدرالسابق، ج٢، ص ١٣٧.

٣١-**نقيب الجيش:** هو الذي يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء والجند وإعلامهم بالمهمات المطلوبة منهم، وتفقد أحوالهم في جميع الأوقات، والترسيم على من يطلب الترسيم عليه وكان يطلب منه تامين الحراسة في المواكب والسفر[١].

منهج البحث:

المنهج المتبع هو النقد والتحليل التاريخي.

خطة البحث:

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول،سبقها فصل تمهيدي،وفي فصل التمهيد تحدثت عن ظهور التتار ثم زحفهم نحو المشرق وتيسرهم لمدينة بغداد واسقاط الخلافة العباسية ثم أشرت الى معركة عين جالوت وأثرها في كسر حدة الهجوم المغولي .

أما الفصل الأول وعنوانه"الأحوال السياسية للمماليك والمغول ومملكة أرمينية الصغرى قبيل معركة حمص "فقد ألقيت الضوء من خلاله على أحوال دولة المماليك البحرية في عهد السلطان بيبرس ، ثم تناولت سياسة بيبرس الخارجية وعلاقاته مع مغول فارس، ثم علاقاته بالدولة البيزنطية ، وعلاقاته مع مغول القبجاق ، ثم تناولت علاقات المغول

(١) القلقشندي:صبح الاعشى ، ج٢،ص٢٢.

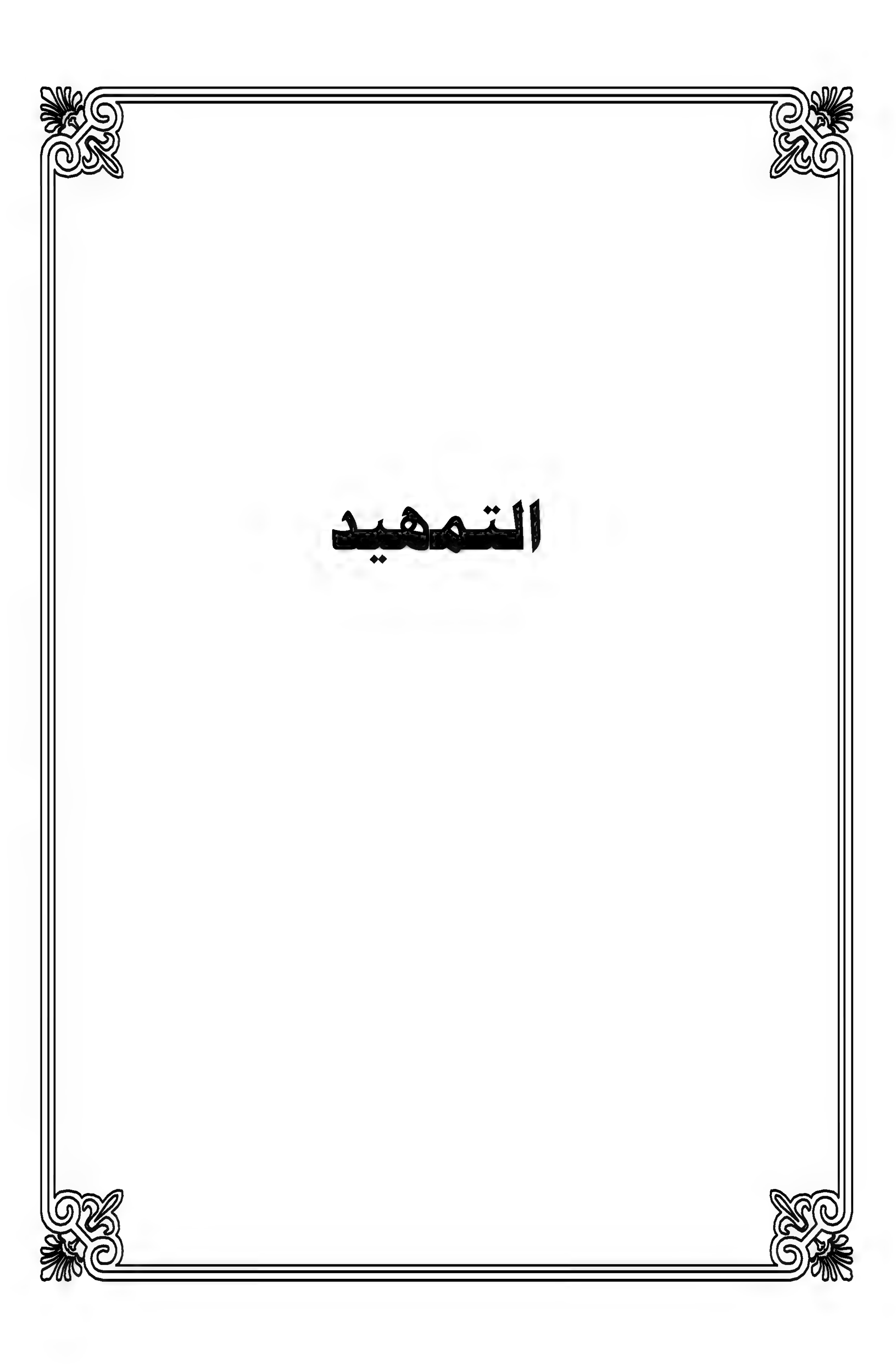
الخارجية مع المماليك ، ثم علاقات المغول مع الصليبيين ثم علاقات المغول مع الأرمن ، وأخيراًتطرقت لوفاة بيبرس وظهور قلاوون.

وفي الفصل الثاني عنوانه"أسباب معركة حمص الكبرى ٦٨٠هـ/١٢٨١م تناولت الأسباب غير المباشرة لقيام المعركة وفيها الأسباب السياسية المباشرة وأهمها ثورة سنقر الأشقر وتحالف المغول ،وغارات المغول على بلاد الشام وتحالفهم مع الصليبيين ،ثم صلح سنقر الأشقر وأخيراً موقف قلاوون من أعدائه.

وفي الفصل الثالث وعنوانه"معركة حمص الكبرى ٦٨٠هـ/١٢٨١م وسيرأحداثها "أبرزنا جهود قلاوون في توحيد الصف الإسلامي ، ثم تحالف المغول مع الأرمن ونتائجه ، ثم جغرافية حمص،ثم موقف (أبغا خان)من الهزيمة ، وأخيراً ماقيل شعراً عن معركة حمص .

أما الفصل الرابع والأخير وعنوانه "انتصار المسلمين في معركة حمص ٦٨٠هـ/١٢٨١م ، أسبابه ونتائجه" فقد عالجت فيه الباحثه اسباب انتصار المسلمين في معركة حمص ،ثم انتقلت لتناول النتائج التي ترتبت على معركة حمص .

وفي الخاتمة تم إبراز أهم النتائج التي أمكننا التوصل إليها على مدى صفحات الدراسة .



التمهيد

التمهيد

اشتهرت قارة آسيا في التاريخ بأنها كانت مصدراً لغزوات بشرية كثيرة، ومن تلك الغزوات التي تركت أثراً خطيراً على المشرق الإسلامي بوجه خاص غزوات التتار (المغول) الذي نجح زعيمهم جنكيز خان [(١)]في توحيد قبائلهم، وتمكن من السيطرة على الصين في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، ومن ثم أصبح التتار قوة كبرى لم تقنع بالأقاليم الوسطى من قارة آسيا، وإنما انطلقت غرباً نحو شرق أوروبا من جهة، وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى، وكان منكوخان خاقان التتار الأعظم اوفد أخاه هولاكو توفي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م لفتح بلاد فارس والشام ومصر وبلاد السلاجقة والآرمن، ولم يكد ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري حتى كان التتار قد استولوا على الدولة الخوارزمية الإسلامية وبسطوا

(١) جنكيز خان:كان اسمه أول الأمر تموجين .ولد في منغوليا عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م على الضفة اليمنى لنهر الاونون في منطقة "دولون بولداق"Dalan- Boldaq.رشيد الدين فضل الله :جامع التواريخ،ترجمةمحمد صادق،وزارة الثقافة والارشاد القومي،القاهرة،١٩٦٠م،ج١،ص٢٤١:انظر ايضا فؤاد الصياد:المغول في التاريخ ،وزارة الثقافة والارشاد القومي،القاهرة،١٩٦٠م،ج١،ص٣٩

سيطرتهم على بلاد فارس وقلاع الباطنية، بمعنى أن التتار أصبحوا على مقربة من بغداد عاصمة الخلافة العباسية في الوقت الذي كانت تعاني فيه الخلافة العباسية من الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتتن الداخلية، وسيطرة الأمراء على الخلافة وشؤونها، وإهمال فريضة الجهاد، فكان هذا سبباً في الضعف الذي أدَّى إلى سقوط الخلافة[١]، وهكذا دخل التتار بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأستباحوها وأشعلوا النار في المدينة ، فأتت على معظم معالم الحضارة الإسلامية في المدينة، وخصوصاً أمهات الكتب والمؤلفات في الآداب والعلوم والفنون، وقضى التتار على معظم أفراد البيت العباسي، ويمكن القول أن أساليب القتل وإشاعة الخوف في بغداد كان مماثلاً لما قام به الصليبيون في القدس عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م بعد أن احتلوا المدينة المقدسة وقتلوا المسلمين بهدف استئصال وجودهم في القدس وما حولها من بلاد الإسلام، فإن التتار بعد احتلالهم لمدينة بغداد شرعوا في الزحف نحو بلاد الشام[٢]، واستولوا على معظم بلادها وهددوا دولة المماليك، وأرسلو إنذاراً شديد اللهجة لسلطان المملوكي قطز، وهذا يعني الغرور المتعاظم، ومن ثم اجتهد المماليك في مواجهة عدوهم، مع أن التتار فيما مضى لم يواجهوا إلا

---

(١) االمقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٠٩-٤١٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٧-٥١.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤١٠.

قوات مضطربه وضعيفة، فرأى المماليك هذه المرة أن عليهم واجب ردع المعتدين عن بلاد الإسلام[١].

كانت موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م بداية تحول خطير في تاريخ الشرق الأدنى، فقد أنقذت مصر والشام من خطر المغول الكاسح[٢]، وقد تنبه إلى هذه الحقيقة بعض المؤرخين الأوربيين، فاعترفوا بأهمية معركة عين جالوت، وذكروا أنها لم تنقذ الشام ومصر فحسب؛ بل خلَّصت العالم الأوروبي من شر لم يكن لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ طاقة على دفعه[٣].

ومن الثابت تاريخياً أن انتصار المسلمين في موقعة عين جالوت التي كانت من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، ترك أثراً ونتائجاً متعددة في التاريخ، ومن ذلك:

(١) التخلص من طغيان وتجبر نصارى دمشق، فقد كان (كتبغا)[٤] قائد جيش المغول في معركة عين جالوت نصرانياً، وجعل الكلمة العليا

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة لدول الملوك ، ج١، ص٤٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨١-٨٢.

(٣) براون، إدوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ترجمه إلى العربية: إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة، ١٩٥٤م، ج٣،ص٢٨-٤٣-٤٤.

(٤) كتبغا: قائد تركي مسيحي بارز من قبيلة النايمان التي هي جزء من المغول تبعت مذهب كنيسة المشرق، كان مقرباً لهولاكو خان، وأحد أبرز قادته رغم كبر سنه، عاونه على غزو بلاد فارس والمشرق العربي، قاد أحد أجنحة الجيش الذي غزا بغداد، وساعد في

للنصارى في مدينة دمشق قبيل معركة عين جالوت، وأن النصارى في دمشق طغوا وبغوا على المسلمين، حتى أنهم حولوا أحد المساجد في دمشق إلى كنيسة[1]. ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة العدد، ما يمنع من استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم الذي قد يحدث وقتئذ، فليس للمؤرخ إلا أن يرى ما حدث فعلاً[2].

ويلاحظ أن وصول خبر انتصار الإسلام في عين جالوت أثر في معنويات أهل دمشق، فهرب نواب التتار منها، وأصبحت بدون حكومة لضبط الأمن، وكما قال المقريزي: "ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم"[3].

(٢) نتج عن انتصار المسلمين على المغول في عين جالوت إعادة الوحدة السياسية بين الشام ومصر، بعد أن شهدت الساحة السياسية في بلاد الشام حالة من الضعف والتفكك والتنازع بين أبناء

غزو =دمشق، وعندما اضطر هولاكو للعودة إلى منغوليا بسبب وفاة شقيقه الخان الأعظم مونكو خان أخذ معه معظم الجيش، وأبقى كتبغا قائداً على بقية الجيش الموجود بالشام، وهو المسؤول عن تقدم جيشه نحو مصر لملاقاة المماليك، وقد قتل في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ط٢ ، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م،ج١٣، ص١٦٧.

(١) السيد الباز العريني: المغول، بيروت، ١٩٦٧م، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني ، بيروت، ١٩٦٩م،ج٣، ص٥٣٧-٥٣٨.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٣٢.

صلاح الدين، مما أدى إلى تمزيق الوحدة التي بذل من أجلها كل من عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي الكثير من الجهد والمال والأنفس ، والتي كانت مطلباً أسياسياً لمواجهة التحديات التي واجهت المسلمين أمام عدوان النصارى بالغرب الأوربي، وهكذا ضاعت هيبة البيت الأيوبي نظراً لتقاعسهم عن التصدي للمغول، وعزوفهم عن الجهاد؛ بل إن الأمر قد وصل إلى حد تواطؤ بعض أبناء البيت الأيوبي مع المغول(١)، أمثال الناصر يوسف أمير حلب(٢) ودمشق سنة٦٤٠-٦٥٩هـ(٣) واشتراكهم معهم في معركة عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين، وبذلك لم يعد لبني أيوب شرعية في الحكم، وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية التي لم تعد جديرة بحكم المسلمين(٤).

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٦.

(٢) حلب: مدينة عظيمة في سوريا واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء .ياقوت الحموي،معجم البلدان ،دار صادر،بيروت،١٩٧٩م،ج٢،ص٢٨٢.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تحقيق: انطون صالح، ط٢، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م، ص٢٧٧.

(٤) سعيدعاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٣٦.

وبالنسبة لدمشق ففي يوم الأحد من رمضان عام (٦٥٨هـ -١٢٦٠م) وصل السلطان المظفر قطز إلى طبرية وكتب إلى أهلها أول كتاب يبشرهم بنصر الله وهزيمة العدو، ففرح الناس لذلك فرحاً عظيماً[(١)].

(٣) تحرير باقي بلاد الشام من التتار، واصل الأمير بيبرس البندقداري مطاردة فلول التتار بعد عين جالوت مباشرة[(٢)]، كما قال أبو المحاسن: "واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار آثارهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى أنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً"[(٣)]، يقول سيديو: "وجد المغول حينما أغاروا على سورية في النصف الأخير من القرن الثالث عشر في مقاومة المماليك وشجاعتهم حاجزاً يتعذر اقتحامه، وانضمت عدة قبائل عربية إلى الجيش المملوكي، فساعدتهم على نيل النصر، ولم يتردد بيبرس أشهر سلاطين المماليك البحرية في الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام، وكان الظاهر بيبرس سياسياً محنكاً، وقائداً ممتازاً"[(٤)].

(٤) تحول القوة الإسلامية في مصر والشام إلى المبادرة بالهجوم وليس التراجع أو الدفاع فقط، ومن خلال تنامي القوة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ط٢، ج١٣، احداث سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ص٢٢١؛ المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٣٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٢١.

(٣) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٠.

(٤) سيديو: تاريخ العرب العام، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٤٩٧.

الإسلامية البرية والبحرية تمكنت دولة المماليك الإسلامية من حفظ البلاد والعباد فترة قرنين من الزمن وردت كيد المعتدين في البر والبحر[١].

(٥) ما أحرزه المماليك من انتصار في عين جالوت، أنقذ الإسلام والمسلمين من الأخطار التي تعرضوا لها[٢]، كما كان لهذا الانتصار الفضل في انقاذ أوروبا من خطرهم، وكان هولاكو، وخلفاؤه من بعده، يفكرون في اجتياح أوروبا كلها بعد سيطرتهم على الشرق الأدنى[٣].

(٦) أدى انتصار المماليك في عين جالوت إلى احتفاظ مصر بما لديها من حضارة ومدنية، فلم تتعرض لما تعرضت له بغداد من الدمار والخراب، وأصبحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء، يجدون فيها التشجيع والتكريم، مما حفزهم على التأليف والتدوين.

(٧) جعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين إلى أن قامت دولة الخلافة العثمانية[٤].

(٨) بث النصر في عين جالوت روحاً جديدة في المسلمين؛ خاصة مسلمي بلاد خراسان الرازحين تحت الحكم المغولي، فقوي موقفهم، وتمكنوا من الصمود أمام تحديات المسيحيين، كما نافسوهم في تبوء

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧، ص٧٤.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ج٣، ١٩٩٣م، ص٥٣٧-٥٣٨.

(٣) براون، إدوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران، ج٣،ص٢٨-٤٣-٤٤.

(٤) رنسيمان: المرجع السابق، ج٣، ص٥٣٨.

الزعامة والصدارة في دولة المغول الإيلخانيين في إيران، وقد شجعهم مساعيهم بالنجاح وأضحى الإسلام دينا رسمياً لدولة المغول الإيلخانيين[١].

يقول رنسيمان: "ما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامي، وإضعاف العنصر المسيحي، لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام، وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية[٢].

(٩) توطيد العلاقات بين الحكام المماليك والحكام المسلمين من المغول في بلاد القبجاق[٣]، وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك المتمثل في أسرة هولاكو بفارس[٤].

---

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ،ج١، ص٣١٧-٣١٨.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٣٨.

(٣) بلاد القبجاق:إقليم في حوض نهر الفولغا في الجنوب الشرقي من بلاد روسيا السابقة ،وشمالي البحر الاسود والقوقاز ووسكانها من أصل تركي،اشتهروا بالبدواة والفروسية،وتعتبر بلادهم مركزاً مهما لتجارة الرقيق الأبيض من الترك . انظر:القلقشندي ،صبح الاعشى ،ج٤،ص٤٥٨.

(٤) بارتولد: تاريخ الترك في اسيا الصغرى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة،١٩٩٦م،ص١٧٦-١٧٧.

(١٠) أدى انتصار المماليك في عين جالوت إلى فشل سياسية الصليبيين في الشرق الأدنى؛ القاضية بالتحالف مع المغول ضد المسلمين، وإلى تعجيل زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ومنحت مصر مركز الزعامة في العالم الإسلامي، ونظرت إليها الدول في المشرق نظرة تقدير واحترام، ولاسيما أن جهودها الفعالة عملت على كسر شوكة كل من العدو الصليبيي من جهة، والعدو المغولي من جهة أخرى(١).

أثار عين جالوت كانت في غاية الأهمية، ولا نستطيع في هذه العجالة أن نمر عليها كلها، ولكن سنذكر على طرفاً منها:

الأثر الاول: عاد المسلمون إلى الله عز وجل أثناء التحضير وأثناء الإعداد لهذا اللقاء، وأثناء المعركة ذاتها، وبعد المعركة، ولمدة طويلة من الزمن، ووضحت المعادلة جداً في أذهان الناس، فالمسلمون عندما ابتعدوا عن الله عز وجل تمكن التتار منهم، ولما عادوا إلى الله حدث النصر الذي اعتبره الكثير من المحللين معجزة، وتبين المسلمين أيضاً بوضوح أن الحرب دينية في المقام الأول، ولذلك فقد استقر في نفوس المسلمين بعد انتصار عين جالوت أن الحروب التي دارت بينهم وبين التتار والنصارى لم تكن حروب مصالح فقط؛ كما يحب كثير من الغربيين والعلمانيين والماديين أن يصوروها، فيجعلون الانتصار هو

(١) أحمد مختار العبادي:قياد دولة المماليك الأولى في مصر والشام،ص.١٦٨

المحرك الرئيسي للحروب، أو يجعلوا الأغراض العسكرية والإستراتيجية هي الهدف الأساسي والله عز وجل بينها لنا في كتابه حيث قال: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}[١]، فجعل الرضا مقروناً باتباع ملتهم وليس ببناء مصالحهم.

الأثر الثاني: تغلب المسلمون في عين جالوت على الآثار النفسية البشعة التي كانوا يعانون منها، فقد قضت على أسطورة[٢] بأن التتار قوم لا يغلبون[٣]، وخرج المسلمون من حالة الإحباط الشديد التي كانت تسيطر عليهم، وعلموا أن الأمل في الله عز وجل لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاظمت قوة الكافرين فإنها ولا شك إلى الزوال.

الأثر الثالث: تعتبر موقعة عين جالوت شهادة الميلاد الحقيقة لدولة المماليك التي حملت راية الإسلام لمدة تقترب من ثلاث قرون (مائتين وسبعين سنة)، كانت بداية حكم المماليك منذ سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م عند ولاية شجرة الدر؛ ثم ولاية زوجها الملك المعز عز الدين أيبك المملوكي، لكن معركة عين جالوت هي التي أعطت الشرعية لدولة المماليك أمام المسلمين.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٢) راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، (د، ط)، (د، ت)، ص٢٣٧-٢٣٨. .

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٤.

الأثر الرابع: رأى كثير من التتار دين الإسلام عن قرب، وقرؤوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه، فأعجبوا به إعجاباً شديداً، وخاصة أنهم كعامة البشر كانوا يعانون من فراغ ديني هائل، لقد بدأ بعض التتار يؤمنون بدين الإسلام، وتزايد عدد المسلمين جداً من القبيلة الذهبية، حتى أصبح كل أهله تقريباً من المسلمين وهم من القبيلة الذهبية، وتحالفوا مع الظاهر بيبرس ضد هولاكو في حروب متكررة[١].

يعد المؤرخون هذه المعركة ونتائجها بداية النهاية للإمبراطورية المغولية؛ إذ لم يهزموا في معركة قط قبلها، ولكن ليس معنى الانتصار على المغول في عين جالوت أن خطرهم قد زال عن الشام نهائياً، إذ الواقع أنهم ارتدوا ارتداداً مؤقتاً دون أن يفقدوا الأمل في معاودة الهجوم، ولهذا تكررت غاراتهم على بلاد الشام بين حين وآخر طمعا في امتلاكها، وقد حدث هذا طوال حكم المغول في إيران الذي كانت تقابله فترة حكم المماليك في الشام ومصر، ولكن لحسن الحظ استطاعت بلادنا بفضل حكامها من المماليك في عهد بيبرس وخلفائه أن تقف لهذه المحاولات بالمرصاد، فردت الأعداء المرة تلو المرة خائبين مدحوريين[٢].

---

(١) راغب السرحاني: قصة التتار ، ص٢٣٨-٢٤٤.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ، ج١، ص٣٢٠.

ولكن وإن أسهب المؤرخون في كتاباتهم عن معركة عين جالوت، فإنهم أهملو معركة حمص التي لا تقل أهمية عن المعركة السابقة.

الفصـل الأول:

العلاقات السياسية للمماليك والمغول ومملكة أرمينية الصغرى قبيل معركة حمص

ويشتمل على:

المبحث الأول : علاقات دولة المماليك البحرية في عهد السلطان بيبرس.

المبحث الثاني : سياسة بيبرس الخارجية :

أولاً : مع مغول فارس.

ثانياً: مع مغول القبجاق.

ثالثاً: مع الدولة البيزنطية.

المبحث الثالث: علاقات المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها

تمثلت في: -

أولاً: علاقات المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها مع الصليبيين.

ثانياً: علاقات المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها مع الأرمن.

ثالثاً: علاقات المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها مع السلاجقة.

المبحث الرابع : وفاة بيبرس وظهور قلاوون، ونتائجه.



الفصل الأول:
العلاقات السياسية للمماليك والمغول
ومملكة أرمينية الصغرى قبيل معركة حمص

المبحث الأول: علاقات دولة المماليك البحرية في عهد السلطان بيبرس

بعد مقتل السلطان قطز في السابع عشر من ذي القعدة ٦٥٨هـ/٢٢ اكتوبر ١٢٦٠م انتقلت مقاليد السلطة إلى السلطان بيبرس البندقداري الذي كان من أقوى أمراء البحرية من ناحية، فضلاً عن مواقفه الشجاعة في مواجهة المغول من ناحية أخرى،[١]. اتصف بيبرس [٢]بالحزم، وعلو الهمة، والبأس الشديد، وبعد النظر، وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفات الفروسية والإقدام، فلم يكد يستقر في الحكم حتى اتخذ عدة إجراءات تنفيذية بهدف تثبيت أقدامه في السلطة، وتحصين الدولة الناشئة،

---

(١) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ص٤٣٦.
(٢) وركن الدين بيبرس البندقداري هو الملقب بالظاهر، ولي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وهو أهم ملوك الدولة البحرية، وأصله من أرض القبجاق، أسر وبيع، واشتراه صغير السن رجل يدعى "العماد الصايغ" فباعه للأمير "علاء الدين أيدكين البندقداري"؛ ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فنسب لذلك إليهما وقد أعتقه الصالح وضمه إلى مماليكه البحرية ورباه معهم، فنشب شجاعاً باسلاً لا يهاب الموت، وقد عرفته الحروب، وهو أمير مقدام صنديد، ويعتبر المؤرخون بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال.ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج٧،ص١٠٠.

وإعطائها صفة الاستمرارية[١] فعلى الصعيد الداخلي وزع المناصب على الأمراء الذين يثق بهم فعين الأمير "فارس الدين أقطاي" المستعرب أتابكاً للعسكر، والأمير لاجين دوادارا كبيراً[٢] وبلبان الرشيدي دوادارا ثانياً، والأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري أمير خور كبير[٣] والأمير أيبك الأفرم

---

(١) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج١٧،ص١٠٣.ابن اياس،محمد بن أحمد :بدائع الزهور في وقائع الدهور،تحقيق محمد مصطفى ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة،١٩٨٤م،ج١، ص٣١١ .

(٢) الدوادار: لقب يطلق على الأمير الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرها، ويدخل تحتها من معنى حكم وتنفيذ أمور غير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال، وهو اسم مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو الدواة التي يكتب منها، والثاني فارسي وهو دار ومعناه: ممسك كما تقدم، ويكون المعنى: ممسك الدواة. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٥، ، ص٤٣٤.

(٣) أمير خوركبير: يطلق على القائم على أمر الدواب من خيل وبغال وإبل وغيرها في الاصطبلات السلطانية في الدوله التركية مثل المماليك، وهو يتحدث عن اصطبل السلطان أو الأمير، وهو اسم مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير، والثاني فارسي وهو خور. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦١.

أمير جاندار[1] وغيرهم من الأمراء الذين ساندوه في إدارة شئون الدولة، فكانوا خير معين، وقد شكل ذلك عاملاً من عوامل استقرار الدولة الداخلي، كما خفف الضرائب عن السكان، فألغى ما كان قد أحدثه المظفر قطز من ضرائب بحجة محاربة المغول، وعفا عن السجناء السياسيين، وأفرج عنهم، وكان من بينهم الملك المنصور نور الدين علي وأمه وأخوه، إلا أنه نفاهم إلى بيزنطة[2] كما كاتب الأمراء المسلمين ليبين لهم مقدرة الدولة المملوكية العسكرية بالانتصار على المغول في عين جالوت، ويوضح لهم أن مأجرى في مصر من تغيير في الحكم، اقتضته الظروف السياسية المستجدة بعد هذا الانتصار فكتب إلى صاحب اليمن وجميع ملوك الشام[3] والغرض من هذه المكاتبات البيعة وما أن تولى السلطان بيبرس عرش السلطنة[4] حتى واجه العديد من المتاعب

---

(١) أمير جاندار: مهمته الاستئذان لدخول الأمراء على السلطان للخدمة وأيام المواكب وعند الجلوس بدار العدل، ومهمته تقديم البريد إلى السلطان مع الدوادار وكاتب السر، وكان له أيضاً الإشراف على البرداريه الجاندارية والخازندارية. الظاهري، ابن شاهين الظاهري:غرس الدين خليل: زبدة كشف الممالیك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق: بولس روايس، مطبعة الجمهورية، باريس، صدر عن دار العرب، ١٩٨٩م، ص١١٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبالعزيز الخويطر، ط٢، الرياض، ١٩٧٦م، ص٧١.

(٣) شهاب الدين: تاريخ مجموع النوادر، تحقيق: هورست هاين، بيروت، دار كلارس شفارتسبرلين، ٢٠٠٥م، ص١١٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج١ ، ص٣١٢.

والقلاقل الداخلية ومن ذلك:عصيان النواب، وتمرد المماليك عليه،وخراب البلاد الشامية مما فعله هولاكو، ولكن استطاع الظاهر بيبرس أن يقضي على هذه الحركات المناهضة لحكمه(١) ومنها حركة سنجر الحلبي الذي مان سمع أن الملك الظاهر تسلطن بمصر، طلب الأمراء الذين عنده بالشام، وفتح الخزائن وانفق الأموال(٢) وتولى دمشق، ولقب بالملك المجاهد، وضربت الدراهم باسمه(٣)، كما واجه بيبرس حركة داخلية قامت في القاهرة تزعمها رجل شيعي يعرف بالكوراني(٤)، ولم يتردد بيبرس في قمع حركته ونجح في اخمادها، وقبض على زعمائهم وصلبهم على باب زويلة، وكان من بينهم الكوراني(٥) كما قامت انتفاضة عربية بقيادة حصن الدين بن ثعلب المعاديه للحكم المملوكي في عهد بيبرس وقد قضى"بيبرس"عليه وشنقه في الإسكندرية(٦).

---

(١) شهاب الدين: تاريخ مجموع النوادر، ص١١٠.

(٢) سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ، دمشق، ١٩٩٥م، الجزء العشرون،ص٤١٦.

(٣) الكوراني: نسبه إلى إحدى قرى اسفرايين، وهي بلدة في نواحي نيسابور، على منتصف الطريق من جرجان. ياقوت الحموي: معجم البلدان ،ج٤، ص٤٨٩.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٤٤٠.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٦٩.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج٧، ص١٠٣؛ ابن إياس:بدائع الزهور، ج١،ص٣١١.

ويبدو أن هذه الثورات التي واجهت بيبرس في بداية حكمه جعلته يشعر بأنه في حاجة إلى دعامة تسند حكمه[١]، لذلك عمل السلطان على إعادة إحياء الخلافة العباسية، فاستقبل أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي، الذي وصل فعلاً إلى مصر، واستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام، ثم عقد السلطان مجلساً بالقلعة، دعا القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا على صحة نسبه ، وبعد إثبات صحة النسب، بايع السلطان الظاهر بيبرس الخليفة الجديد الذي لقب بالمستنصر بالله، وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس؛ ثم قام الخليفة الجديد بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة، وتم ذلك في حفل كبير أقيم بعد أيام، وبذلك تحقق لبيبرس ما أراد، وصار يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية العليا في العالم الإسلامي وهي الخلافة العباسية[٢]، كما اهتم بتحصين أطراف الدولة وثغورها لحمايتها من الاعتداءات الخارجية، ولاتخاذها قواعد انطلاق لمحاربة الأعداء، فأعاد بناء القلاع في بلاد الشام التي خربها المغول من حمص إلى حوران [٣]، وشحنها بالمقاتله، وزودها بالمؤن والذخيره،

(١) محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١م، ص٥٠.

(٢) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص١٠٠.

(١)حوران:هي من أعمال دمشق في القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع .عبدالمؤمن بن عبدالخالق البغدادي،مراصد الاطلاع على أسماء الامكنه والبقاع،تحقيق علي محمد البجاوي،دار المعرفة،بيروت،١٩٥٤م،ج١،ص٤٣٥.

فأمن بذلك خطاً دفاعياً من شرقي الأردن إلى نهر العاصي[1]، وبنى أبراجاً للمراقبة في المناطق الحدودية مع الصليبيين، لحفظ الطرقات من تعدياتهم، وتحقيق الأمن عليهم، وشيد سلسلة من المنائر تربط مناطق الحدود بالعاصمة لمراقبة تحركات الأعداء وسرعة نقل الأخبار وشحنها بالمراقبين، وكانت الأدوات المستعمله للإنذار في الليل النار، والدخان في النهار،كما جدد قلعته البيرة[2]في عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م وشحنها بالمقاتلة، وزودها بالعتاد والمؤن من مصر وبلاد الشام لمساعدة سكانها على المقاومة[3].وفي مصر ردم مصب النيل عند ثغر دمياط بواسطة الصخور الكبيرة لمنع الصليبيين من النزول فيه إذا ما حاولوا إرسال حملة أخرى إلى مصر، وشيد برجاً للمراقبة في رشيد[4]، وعمر أسوار الإسكندرية، وجدد بناء منائرها[5].

كما اهتم بيبرس بالقوة العسكرية لدولته ليواجه أعداءها، فعمد إلى بناء جيش قوي من المماليك، فاستكثر من شرائهم حتى أصبحت مصر آهلة بهم، وكان مصدرهم بلاد القبجاق، وأسواق النخاسة البيضاء في آسيا الصغرى، وشواطى البحر الأسود[6].

---

(٢)ابن عبد الظاهر:الروض الزاهر،ص٩٣.
(٣)البيرة:هي بلدة قرب سمسياط ،بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع . والمشهورة وهي على شط الفرات ،البغدادي،مراصد الاطلاع،ج١،ص٢٤١.
(٤)المقريزي:السلوك في معرفة دول الملوك ،ج١،ص٥٢٥.
(٥)رشيد:بلفظ الرشيد ضد القوي ،بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، خرج منها جماعة من المحدثيين.ياقوت الحموي:معجم البلدان،ج٣وص٤٥.
(٦) ابن عبدالظاهر:الروض الزاهر،ص٩٥.
(٣) القلقشندي:صبح الاعشى،ج٤،ص٩٩

المبحث الثاني: سياسة بيبرس الخارجية

أولاً: علاقة المماليك البحرية مع مغول فارس

كانت العلاقة عدائية بين بيبرس ومغول فارس، ففي الوقت الذي قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم بالشام، حارب

أيضاً تتار فارس(١)، والسبب في توتر العلاقة بين الطرفين هو أن جراح عين جالوت لم تندمل بعد، فالمغول يبيتون النية للانتقام لأنفهسم من ناحية، والتوسع وضم المزيد من الأراضي الإسلامية من ناحية أخرى، والمماليك مصممون على الدفاع عن الأراضي الإسلامية ضد أطماع المغول من ناحية والصليبيون من ناحية أخرى، ولكن انشغال مغول فارس في هذه الفترة مع مغول القبجاق أعطى السلطان الظاهر بيبرس فرصة للاستعداد وترتيب أوضاعه الداخلية.

كانت بداية الاحتكاكات المسلحة بين الطرفين حوالي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م؛ حيث تمكن المغول من عبور الفرات، وحققوا بعض الانتصارات؛ إلا أنهم هزموا عند حمص وأجبروا على الانسحاب نحو حلب التي تمكنوا من الاستيلاء عليها (٢) اذ ظل التتار يتحينون الفرصة للثأر، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية، ولكن بيبرس وقف بالمرصاد لتتار فارس، وحال بينهم وبين ما يشتهون، ولم يكد يسمع بيبرس سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م بإغارة التتار على البيرة حتى

---

(١) ابن آيبك، أبو بكر بن عبدالله: كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١م، ج٨ ، ص١٠٧.

(٢) اليونيني: موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان، دائرة المعارف الإسلامية، الهند، ١٩٥٤م، ج١، ص٤٤٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهره، ج٧، ص١٠٩.

أرسل حملة سريعة لردهم، ففر التتار هاربين تاركين خلفهم أموالهم وعتادهم[١].

بعد أن صار تتار فارس في حالة من الإجهاد والاضطراب لا تمكنهم من القيام بمحاوله كبرى لغزو الشام في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)، لجأ كتبغا إلى طلب الصلح من بيبرس، واستخدم في طلبة الترغيب والترهيب[٢]، ولكن بيبرس أدرك جيداً أن الصلح مع التتار أمر لا يرضى عنه مسلم، بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة العباسي، وفعلوا مع المسلمين في المشرق ما لا يتفق، لذلك رفض بيبرس طلب كتبغا الصلح مع التتار، وأعلن أنه لن يكف عن التتار حتى يسترد جمع البلاد التي استولو عليها من المسلمين[٣].

ولما يئس كتبغا من الصلح أرسل رجاله للإغاره على بلاد الشام سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، فهاجموا الساجور[٤]، ولكنهم ارتدوا خائبين، وفروا ناكصين على أعقابهم عندما رأوا الجيوش التي أرسلها السلطان

---

(١) ابن آيبك: كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٨، ص١٠٧.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥٧٤.

(٣) العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامه للكتاب،القاهرة، ١٩٩٢م، ج٢٠، ص٥٤٩.

(٤) الساجور: وهو نهر بجهات منبج، وتقع عليه عينتاب وتل باشر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٧٠.

بيبرس لصدهم؛ ثم عاد التتار مرة أخرى لمهاجمة عينتاب[(١)] وعمق حارم [(٢)] سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م، ولكن غارتهم كانت محدودة الأثر والأهمية.

أما الحملة الإنجليزية التي قادها الأمير إدوارد الأول مل[٣]ك إنجلتر فقد وصلت إلى عكا في سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م، ولم يكن الأمير يملك من القوات ما يمكنه من محاربة السلطان الظاهر بيبرس، علاوة على غضب الأمير الإنجليزي عندما وجد أن التجار المسيحيين وفي مقدمتهم البنادقة يمدون دولة المماليك بالأخشاب والحديد اللازمين لصنع السفن الحربية وآلات الحصار والأسلحة، بالإضافة إلى إمدادهم لدولة المماليك بالرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه المماليك في تغذية جيشهم بالأعداد اللازمه بعد أن يعتنقوا الإسلام، وكان التجار البنادقة يحصلون في مقابل ذلك على امتيازات تجارية في الموانيء الإسلامية، وحاول الأمير إدوارد جاهداً منع هؤلاء التجار من التعامل مع المسلمين، وفرض عليهم حصاراً، ولكن جهوده لم تفلح في ثني البنادقة عن مواصلة تجارتهم مع الإسكندرية، وكانت لهم الفنادق والقناصل، كل ذلك جعل الأمير يفكر في التحالف مع التتار من أجل القيام بعمل عسكري مشترك ضد المسلمين،

---

[١](١) عينتاب: قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٧٦.

(٢) حارم:حصن حصين و وكورة جليلةوتجاة انطاكيةمن أعمال حلب.البغدادي:مراصد الاطلاع ،ج١،ص٣٧١

ومن ثم أرسل بمجرد وصوله إلى الشام سفارة إلى كتبغا خان ملك مغول فارس يعرض عليه التحالف ضد دولة المماليك، فرد إدوارد رداً إيجابياً سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، ووعد بالحضور للاشتراك مع القوات الصليبية في محاربة المماليك[١].

وفي انتظار المساعدة المغوليه أخذ الأمير إدوارد قائد الحملة الإنجليزية ينظم أمور الدفاع عن عكا، حيث اجتمع بالملك (هيو الثالث- Hugh lll)(٦٦٧-٦٨٣هـ/١٢٦٩-١٢٨٤م) لوضع خطة عمل عسكرية، وتم الاتفاق بينهما على أن استرداد البلاد المقدسة لا يكون إلا بالاستيلاء على مصر؛ باعتبارها مركز القوة الإسلامية، وإن تأمين الوجود الصليبي في بلاد الشام يتطلب كذلك الاستيلاء على القسطنطينية، وذلك بعد فتح مصر وبلاد الشام، ولكن هذه الخطط لم يكتب لها النجاح لأسباب، في مقدمتها: يقظة السلطان الظاهر بيبرس، ومراقبته للعدو، وحذره الدائم، وصدقه في الجهاد في سبيل الله، يضاف إلى هذا انشغال كتبغا ملك المغول بمحاربة أقربائه مغول التركستان وغاراته المحدوده على دولة المماليك[٢].

---

(١) المقريزي :السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١،ص٥٩٢.

(٢) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٦٠٠؛ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٥٥-١٥٦.

وأمام فشل الهجوم المغولي وضعف الصليبيين لم يجد هيو الثالث والأمير إدوارد بُداً من عقد هدنة مع السلطان الظاهر بيبرس مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م(١).

ومع ذلك لم يوافق بيبرس على مبدأ الصلح مع التتار، مما جعلهم يجددون هجماتهم على البيرة سنة ٦٧٠-٦٧١هـ/١٢٧٢-١٢٧٣م(٢)، وعندما ايقن بيبرس أن التتار تحالفوا مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ضده، أعد حملة كبيرة سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٦م لغزو سلاجقة الروم، وفي موقعة إبلستين (٣)حلت هزيمة ساحقة بالتتار وحلفائهم السلاجقة، وفر معين الدين سليمان البرواناة زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من رجاله، فضلاً عمن قتل من التتار(٤)، ثم دخل بيبرس قيصرية(٥)، ودعي له على منابرها، وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة، وذلك

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١، ص٦٠١،ابن تغري بردي: النجوم الزاهره، ج٧، ص١٥٧.

(٢) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص٤٠٤؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٠٢.

(٣) إبلستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس مدينة أصحاب الكهف البغدادي:انظر مراصد الاطلاع ،ج١،ص١٧-١٨.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونلدس س. ريتشاردز، النشرات الإسلامية، بيروت، ١٩٩٨م، ج٩، ص١٣٥.

(٥) قيصرية:بلدة على ساحل بحر الشام ،تعد في فلسطين ،بينها وبين طبرية ثلاثة ايام وقيل قيسارية كمدينة كبيرة في بلاد الروم كانت كرسى ملك بني سلجوق.البغدادي:مراصد الاطلاع،ج٣،ص١١٣٩.

قبل أن ينصرف عائداً إلى بلاد الشام. ويقال أن كتبغا استشاط غضباً عندما سمع بما فعله الظاهر بيبرس برجاله في إبلستين، وأسرع إلى هناك سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م؛ حيث شاهد الآلاف من رجاله صرعى، في حين لم ير قتيلاً من السلاجقة، لذلك أمر بقتل مائتي ألف من السلاجقة المسلمين[١].

أما بالنسبة للبرواناة[٢] فإن كتبغا قبض عليه وأمر بقتله بعد أن علم أنه كان يراسل بيبرس، واتهمه على الفور بخيانة المغول[٣].

كما أن كتبغا انشغل بالاضطرابات داخل دولته، مما صرفه عن القيام بعمل آخر ضد المماليك[٤].

ثانياً: علاقة المماليك البحرية مع مغول القبجاق:

قسم جنكيز خان إمبراطوريته قبل وفاته بين اربعة من أولاده، هم: جوجي، جغتاي، أوكتاي، وتولوي، فكان نصيب جوجي وهو أكبر أبنائه البلاد الواقعه بين نهر آرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وتعرف

---

(١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، ص٦٢-٦٣.

(٢) البرواناه: لفظ فارسي معناه في الاصل الحاجب، وقد أطلق في دولة السلاجقة الروم في آسيا الصغرى على الوزير الأكبر. المقريزي:السلوك لمعرفة الملوك : ج١، ص٥٧٢، حاشية١.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، ص٢٦١.

(٤) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص١٣٩-١٤٠؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ،ج٢، ص٤٦٩.

تلك البلاد عامة باسم القبجاق[1]، وغالب سكانها من الأتراك والتركمان، كما أطلق على قبيلة أبناء جوجي (القبيلة الذهبية)، نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي[2].

ولما كان جوجي قد توفى في حياة أبيه فقد عهد جنكيز خان إلى حفيده باطو بن جوجي بإدارة هذه المنطقة، ولم يلبث الدين الإسلامي أن انتشر بين هذا الفرع المغولي؛ خاصة بعد اعتناق بركة خان ابن جوجي الإسلام، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد التقارب بين مغول القبجاق والقوى الإسلامية في المشرق؛ خاصة دولة المماليك البحرية، وازدياد العداء بين مغول القبجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين؛ خاصة مغول فارس[3].

وقد ارتبط مغول القبجاق بعلاقات طيبة مع المماليك قائمة على التعاون والتفاهم، في الوقت الذي ساءت فيه علاقاتهم مع أبناء عمومتهم في فارس، وكانوا لا يزالون على الوثنية، وقد استغل المماليك هذا العداء لصالحهم حتى يخففوا من وطأة الهجمات التي كان يقوم بها مغول فارس ضد الأراضي الإسلامية، وكانت بداية هذه العلاقات عندما قدمت جماعة من مغول القبجاق وكانوا في قتال مع مغول فارس إلى الديار الإسلامية،

(١) المقريزي:المواعظ والاعتبار،ج٢،ص٤٦٥.

(٢) الرمزي، محمد مراد مكي: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، ١٩٠٨م، ص٤٢٨-٤٢٩.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٣٩٤-٣٩٥، حاشية رقم ٤.

واستقبلهم السلطان بيبرس فأكرمهم واعتنقوا الإسلام، فأغدق عليهم الهدايا والإقطاعات، مما كان سبباً في كثرة الوافدين إلى بلاد الإسلام[١].

واستفاد بيبرس من هذا الأمر بالتحالف مع بركة خان، ومن الطبيعي أن يلاقي بيبرس تجاوباً من الزعيم المغولي المسلم، إذ أن اعتناق هؤلاء المغول الديانة الإسلامية جعلت التحالف بين الطرفين ضرورة سياسية لمواجهة العدو المشترك المتمثل بهولاكو وأسرته[٢].

ووصل في عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م رسل بركة خان إلى مصر، يحملون رسالة للظاهر بيبرس جاء فيها: "فليعلم السلطان انني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي، لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً للدين الإسلامي؛ لأنه باغي، والباغي كافر بالله ورسوله"[٣]، ويعرض علية إرسال قوة عسكرية إلى معابر الفرات لقطع الطريق على هولاكو.

ورد بيبرس على رسالة بركة خان، برسالة طويلة جمع فيها: "من الترغيب والجهاد، والاستماتة، واللإغراء، والتعاظم عليه، وإظهار الميل إليه، ووصف كثرة جنود الديار المصرية، وماهي عليه"[٤]، وأمر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء للخليفة والسلطان على منابر مكة،

---

(١) المقريزي:المواعظ والاعتبار ،ج١،ص٤٦٥.

(٢) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٢.

(٣) ابن عبد الظاهر :الروض الزاهر، ص١٧٢.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٤٦٥.

والمدينة، وبيت المقدس، والقاهرة، وحمل رسله الهدايا، وكان من بينها زرافة[١].

استقبلت رسل بيبرس في البلاط المغولي بالحفاوة، وذكروا لدى عودتهم مدى انتشار الإسلام بين مغول القبجاق؛ بحيث إن لكل أمير وأميرة في البلاط إماماً ومؤذناً خاصاً، وأن الاطفال يحفظون القرآن في المدارس.

وكان من نتيجة هذه العلاقات الطيبة أن عقدت معاهدة بين الطرفين موجهة ضد العدو المشترك، وقد استفاد السلطان بيبرس منها فائدتين:

الأولى: أمن استمرار تدفق المماليك من بلاد القبجاق ليزيد من عدد جنوده.

الثانية: إلهاء هولاكو بقتال بركة خان على حدود القوقاز وصرفه عن التفكير في توجيه حملات إلى بلاد الشام ليثأر لهزيمة جيشه في عين جالوت[٢].

وهكذا نجح بيبرس في سياسته التي كانت ترمي إلى إعلاء شأن دولته وتثبيت أركانها، وفي ذلك يقول صاحب كتاب (المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية): "كان الملك الظاهر قد ملك فأسجع،

---

(١) شافع بن علي بن عباس: حسن المناقب السرية المنتزعه من السيرة الظاهرية، تحقيق عبدالعزيز خويطر، الرياض، ١٩٨٩م ص١٧١.

(٢) عادل إسماعيل محمد هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٤٦.

وسعى في ذات الله فأنجع، وقام بأعباء السلطنة أيما قيام، وسهر في إقامة منار الإسلام، وأعمل الركاب في قطع شوكة عدو الله من الفرنج والتتار، واستغرق مدة ملكه في بلاد يفتحها، وغزوات يختمها بالنصر ويفتحها"[١].

ثالثاً: علاقة المماليك البحرية مع الدولة البيزنطية:

أثبت السلطان بيبرس أنه على جانب كبير من المهارة والدراية السياسة والقدرة على استقطاب الحلفاء ضد أعدائه الذين هددوا دولته تهديداً مباشراً في بلاد الشام ومصر[٢].

وتوطدت العلاقات بين مصر وبيزنطة في عهد الظاهر بيبرس، فقد اتجه بيبرس إلى الإمبراطور ميخائيل الثامن وأجرى معه مفاوضات تمخضت عن عقد اتفاقية تبقي المضائق مفتوحة أمام التجارة المملوكية مع القبجاق، لتتم الصلة بين مصر وجنوبي روسيا عن طريق البحر[٣].

وفي السنوات العشر ٦٦٠-٦٧١هـ/١٢٦٢-١٢٧٢م تبادل الظاهر بيبرس وميخائيل الثامن الوفود السياسية، ووافق الإمبراطور في عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م على مرور المماليك المتنقلين من روسيا إلى مصر في

---

(١) شافع بن علي بن عباس:حسن المناقب السرية،ص١٧١.

(٢) أسد رستم: الروم في سياستهم، ط٢، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٥٦م،ج٢، ص٢١٦.

(٣) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج١، ص٣٣٢.

المضائق، مقابل إقامة بطريرك أرثوذكسي في الإسكندرية، وإرسال بيبرس بطريركاً من الملكانيين إلى القسطنطينية ليرعى شؤون الطائفة الملكانية فيها(١).

واستجاب السلطان لرغبة الإمبراطور، فأرسل الرشيد الكامل، وهو أحد رجال المذهب الملكاني بصحبة الأمير فارس الدين آقوش المسعودي، واحتفى الإمبراطور بهما، وأطلع الأمير آقوش على مسجد المسلمين الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور بتجديده، وقد أسهم السلطان في بناء المسجد، وعاد الأمير آقوش من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور للسلطان.

وانتهز الإمبراطور البيزنطي فرصة مرور بعض المماليك بالقسطنطينية في عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م فطلب من السلطان أن يقنع خان القبجاق بالتزام الحياد تجاه الوضع المتدهور في البلقان، والواضح أن ميخائيل الثامن كان بحاجة إلى دعم المماليك في مصر ليواجه أعدائه في الغرب الأوربي، وفي عام ٦٦٢هـ/١٢٦٤م عرقل الإمبراطور مرور رسل السلطان أثناء عبورهم لبلاده في طريقهم إلى زعيم القبيلة الذهبية، وقد غضب الظاهر بيبرس لذلك، فجمع رجال الدين، وأشهدهم على مخالفة الإمبراطور للأيمان والعقود بين الطرفين، ويبدو أن هذا الأخير قد علم بخطئه، فاستدركه وأطلق سراح الرسل، وسمح لهم بالسفر إلى

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥١٤-٥٣٧.

بلاط بركة خان، وبعث في الوقت نفسه الهدايا إلى مصر ليسترضي السلطان[1].

المبحث الثالث: علاقة المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها:

أولاً: علاقة المغول بالصليبيين:

اذا كانت هناك خلافات في وجهات النظر بين العديد من المؤرخين المحدثين حول التوقيت الدقيق لبداية تبادل السفارات بين اللاتين في عكا و هولاكو من ناحية، وبين هولاكو والغرب الأوروبي من ناحية أخرى، فإن هناك شبه إجماع على أمرين:

أولهما: أن هولاكو بدأ يتصل باللاتين بعد هزيمة قواته في موقعة عين جالوت، وبعد دخوله في صراع مسلح مع مغول روسيا عام ٦٠٠هـ/١٢٦١م، وذلك لأنه كان بحاجة فعلية للتعاون معهم.

ثانيهما: أن الغرب الأوروبي الذي سبق له إرسال عدة سفارات للمغول(٦٤٣-٦٥٢هـ ١٢٤٥/١٢٥٤م) باءت جميعها بالفشل، والذي وصلته عدة نداءات للنجدة من الصليبيين في عكا إبان غزو هولاكو لبلاد الشام في نفس الوقت تقريباً الذي كانت قوات مغولية (من فرع مغول القبجاق) تغزو شرق أوروبا لم يثق في مراسلات هولاكو ولم يعرها آذانا صاغية، هذا إذا افترضنا أن الغرب الأوروبي كان لديه القوة والقيادة

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٩٤-٣٩٥، حاشية رقم ٤.

الموحدة التي تجعله يرغب بالتحالف مع مغول فارس، سواء بعمليات حربية ضد مغول روسيا في شمال أوروبا أو بعمليات عسكرية مباشرة ضد المماليك، أو عن طريق الكيانات الصليبية في شرق البحر المتوسط(١).

ومن ثم فإن خطابات هولاكو السابقة للغرب الأوروبي عن نيته في التنصير على المذهب الكاثوليكي لم تكن الا رغبة للغرب الأوروبي الذي كان يحلم بتنصير قادة المغول لجرهم للتحالف معه ضد المسلمين العدو المشترك للطرفين، وما يؤكد ذلك أن هولاكو مات بوذياً سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، ويقول رشيد الدين: "إنه في آخر حياته بنى معابد للأصنام في مدينة خوى"(٢).

وتعتبر فترة حكم كتبغا خان فترة هامة في تاريخ العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوروبي، وذلك لازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكري ضد المسلمين عن ذي قبل، فتفجر النزاع بين كتبغا وبين مغول التركستان أو الجغطائيين بدءا من عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٨م، وانشغال جزء هام من قواته في حروب على الحدود الشرقية، في الوقت الذي لا يزال النزاع مستمراً على حدوده الشمالية مع روسيا جعل الإيلخان من مغول فارس يرسل العديد من السفارات للبابوية وملوك غربي أوروبا

---

(١) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج١،ص٣٣٧-٣٤٠.

(٢) خوى:بلد مشهور من أعمال أذربيجان ،حصن كثير الخير والفواكه. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٢،ص٤٦٦.

طالباً التحالف العسكري معهم ضد المماليك ليأمن شر أعدائه على حدوده الغربية، ولقد عاصر ذلك الإيلخان الظاهر بيبرس الذي كان رجلاً سياسياً حاذقاً، بعيد النظر في التعامل مع أعدائه من الصليبيين، والأرمن، والمغول، فبعد سلسلة إصلاحات داخلية، وعلاقات دبلوماسية لتطويق أعدائه استطاع بيبرس أن يقود أكبر قوة عسكرية ضاربة في المنطقة، والانفراد بخصومه واحداً بعـــد الآخر، وبعد تحطيم أو تحييد أحد خصومه ليستدير للخصم الآخر، ولهذا كان الصليبيون في الشرق بحاجة ماسة أيضاً للتحالف مع مغول فارس في ضوء انشغال البابوية بمشاكل سياسية في جنوب أوروبا، وكذلك انشغال بقية الغرب الأوروبي بمشاكلهم الإقليمية عن نجدة الصليبيين ضد المماليك، فقد تمكنت المماليك في عامي(٦٦٣-٦٦٥هـ/١٢٦٥-١٢٦٦م)من الاستيلاء على قيسارية، وحيفا، وأرسوف[(١)]، وصفد[(٢)] من الصليبيين بالإضافة إلى بعض القلاع الأخرى لفرسان الداوية، وعقد بيبرس معاهدات مع القوى الصليبية الأخرى يلزمهم فيها بعدم التحرش بالمسلمين أو مساعدة أحد ضدهم[(٣)].

وكان ضرورياً للسلطان المملوكي أن يقوم بتحييد هذه القوى الصليبية في صراعه المرتقب مع أهم أعدائه بعد المغول وهم الأرمن

---

(١) أرسوف: مدينة على ساحل الشام بين يافا و قيسارية. البغدادي:مراصد الاطلاع،ج١،ص٥٦..

(٢) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص والشام، وهي من جبال لبنان. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٣،ص٤١٢ .

(٣) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص٢٣٠-٢٣٣؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١،ص٥٢٤-٥٢٨-٥٤٦.

وإمارة أنطاكية الصليبية اللذين تحالفا مع المغول ضد المسلمين عام٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، ومن ثم فإن بيبرس أرسل تجريده[١] عسكرية للاغاره على أملاك بوهيمند السابع في طرابلس لشغل قواته عن مد يد العون لصهره وحليفه ملك أرمينيا الصغرى التي تعرضت بلاده في أغسطس عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م لهجوم كاسح من قوات المماليك هزيمة الأرمن وتدمير قلاعهم وحصونهم، وقتل أحد أبناء هيثوم الأول وأسر ابن ثان له (ليفون) مع عدد كبير من الأسرى والغنائم[٢].

وأسرع كل من (هيثوم الأول-Hathom first)(٦١٩-٦٦٨هـ/١٢٢٢-١٢١٩م)وكتبغا خان بإرسال السفارات للغرب الأوروبي لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك، وذلك في نهاية عام٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، ونظراً لعدم العثور على خطاب كتبغا خان للبابا كليمنت الرابع(٦٦٤-٦٨١هـ/ ١٢٦٥/١٢٨٢م) فيمكن من خلال الرد الذي أرسله البابا عام٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م على هذه الرساله، بالإضافة إلى خطاب كتبغا مع سفارته الثانية في العام التالي لسنة٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م للغرب الأوروبي استنتاج أهم النقاط الوارده في الخطاب الأول لكتبغا، ويتضمن هذا الخطاب طلب كتبغا من البابا إرسال جيوش الغرب الأوروبي بالتعاون

---

(١) جريدة:فرقة من العسكر الخيالة لارجال فيها،ويقال (ركب السلطان جريدة)إن ركب على وجه السرعة دون ان يصطحب معه أثقالاً أو حشداً.المقريزي:المواعظ والاعتبار،ج١،ص١٠٦.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٨-٤٩٩؛ ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٩-٢٧١؛ فايز نجيب إسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبية ودولة المماليك، رسالة دكتوراه مقدمة لكلية الآداب جامعة الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص١١٣-١٢٠.

مع قوات صهره ميخائيل الثامن باليولوجس(٦٦٠-٦٨١هـ/١٢٦١/١٢٨٢م)للشام لمحاصرة قوات المسلمين بين المغول شرقاً والقوات الأوروبية غرباً، ويستفسر كتبغا خان من البابا عن الطريق الذي ستسير فيه هذه القوات، وعن موعد وصولها إلى الشرق، ورد البابا لكتبغا خان في قوله: إن ملوك فرنسا ونافار وكثير من البارونات وعدد لا يحصى من الجنود يستعدون للذهاب للاراضي المقدسة ليهاجموا أعدائهم، وأرسل كلمينت الرابع خطابا لبطريرك بيت المقدس في عكا لمساعدة ملك أرمينيا الصغرى وأمير أنطاكية حينما يتقدمان بقواتهما مع قوات المغول ضد المماليك(١).

والمهم أنه بوصول مبعوث البابا لكتبغا خان قام الأخير على الفور بإرسال سفارة للغرب الأوروبي بخطاب مؤرخ من اذربيجان في عام٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م وذلك لأن موقف حلفاء مغول فارس في الشرق الأدنى كان قد بلغ حينئذ درجة من السوء لم تحدث من قبل، فقبل ذلك بعامين كانت قوات المماليك قد حطمت عنه أرمينيا الصغرى، وقتلت ابن ملكها، وأسرت ابن آخر في إطار خطة السلطان الظاهر بيبرس لتحطيم هذه المملكة أو إخراجها من صراعه مع إمارة أنطاكية، وفي عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م قاد بيبرس جيشاً ضخماً وحاصر أنطاكية فجأة من عدة جهات، ولم يتمكن أحد من نجدتها، سواء من الأرمن أو المغول أو

(١) عادل إسماعيل محمد هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص٥٧-٥٩.

الصليبيين، وكان أميرها بوهيمند السابع في طرابلس، ولم يستطع إنقاذ إمارته، وطبقاً لرواية ابن عبد الظاهر كان بأنطاكية مائة ألف نفر، وجميعهم إما قتل أو أسر[١].

وحصل المماليك على غنائم لا تحصى، فقسمت النقود بالطاسات، ولم يبق غلام مسلم إلا له غلام صليبي، وبيع الصبي باثني عشر درهماً، والجارية بخمسة دراهم، وركب السلطان إلى قلعة أنطاكية وأحرقها، وأخذ الناس حديد أبوابها، ورصاص كنائسها[٢].

ومما يدل على حنكة بيبرس الدبلوماسية: تأجيله تسليم ليفيون بن هيثوم الأول لوالده، رغم الثمن الفادح الذي دفعه الأرمن نظير إطلاق سراحه إلى ما بعد الانتهاء من أمر الاستيلاء على أنطاكية بشهر واحد فقط؛ حتى يضمن تماماً عدم تدخل قوات ملك الأرمن وحلفائه المغول لمساعدة صهره بوهيمند السادس، وبعد أن تحقق للسلطان المملوكي ما أراد وأطلق سراح ليفون الذي أخذه والده لكتبغا خان كي يوافق على توليته عرش أرمينيا الصغرى، واعتزل هيثوم بقية حياته في أحد الأديرة[٣].

---

(١) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٨؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٥٦٧.

(٢) ابن عبدالظاهر:الروض الزاهر، ص٣٢٤.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر: ص٣٢٧-٣٢٩؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٩-٥٠٠.

ولهذا فأن كتبغا خان كان يتوقع استجابة فورية من الغرب الأوروبي للتحالف معه ضد المماليك بعد سقوط أنطاكية، ففي خطابه الذي أرسله عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م يدخل كتبغا خان في تفاصيل مشروع التحالف المشترك ويبلغ البابا أنه سيرسل أخاه Ejei على رأس قوة كبيرة إلى بلاد الشام، وأن جيش البابا الذي أخبره المبعوث البابوي أن ملك فرنسا سيتولى قيادته، وجيش ملك أرجون سوف يهاجمان المماليك من الناحية الأخرى لحصار وتدمير عدوهما المشترك بينهما، ولما يئس الإيلخان المغولي من قبيل تحفيز الغرب الأوروبي للاستجابة له أن يشير للانتصار على أعدائه في الداخل والخارج، وحبه للمسيحيين، وحمايته لكنائسهم[١].

وعندما وصلت سفارة كتبغا بصبحة المبعوث البابوي إلى روما عام٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م وجدت أن كليمنت الرابع قد مات، ومن ثم ذهبت إلى جيمني الأول ملك أرجوان وبقية ملوك غرب أوروبا، وكانت أخبار سقوط أنطاكية قد وصلت للغرب، وكانت استعدادات (لويس التاسع- Louis lx)وعدد من أمراء الغرب لحملة صليبية سابعة جديدة لنجدة الصليبيين في الشرق في مراحلها النهائيه، وإزاء الأنباء التي بعثها كتبغا بوجود جيشه على أهبة الاستعداد لغزو سوريا فور ظهور الجيوش الأوروبية على سواحلها، فإن جيمي الأول قاد أسطوله للشرق، ولكن

(١)عادل اسماعيل محمد هلال :العلاقات بين المغول وأوربا،ص٦٣-٦٨.

ريحاً قوية صرصراً عاتية حطمت معظم سفنه أمام السواحل الفرنسية، فرجع لبلاده، ولكن ولديه أكملا الرحلة إلى عكا مع قوة صغيرة؛ حيث اعتقدا أنه يمكنهما بقوتهما الصغيرة هزيمة المماليك، ولكن نبلاء عكا نصحوهما بالعدول عن استخدام القوة، وبعد غارة على قرية مسلمة رجعا من حيث أتيا، ولكن الحملة الكبرى التي كانت تضم عدداً كبير من أمراء و بارونات الغرب الأوروبي وقواته تحت قيادة لويس التاسع انحرفت إلى تونس ضد الحفصيين، الذين لم يكن بينهم وبين غرب أوروبا أية علاقات عدائية، والمهم أن الملك الفرنسي ومعظم قواته ماتوا بالطاعون بعد نزولهم لقرطاجة، ومن ثم رجع أولاده بجثمانه وبفلول جيوشهم من حيث أتوا بعد أن حقق شقيقة شارل الانجوي أهدافه مع الحفصيين، وكان الأمير إدوارد بن الملك هنري الثالث ملك إنجلترا قد قاد نحو ألف من قواته للحاق بحملة لويس التاسع، ولكنه وصل قرطاج عام٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م أي بعد وفاة الملك الفرنسي بشهر واحد، ووصل إدوارد بحملته الصغيرة إلى عكا عام٦٧٠هـ/ ١٢٧١م وأنعش آمال الصليبيين في الشرق، وعلى الفور أرسل إدوارد ثلاثة من رفاقه إلى كتبغا خان لطلب إرسال جيوشه، وهو الوعد الذي سبق أن أبلغه للأوربيين فور نزولهم للشرق(١).

---

(١) عادل إسماعيل محمد هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص٦٣-٦٨.

ونظرا لانشغال قوات كتبغا خان على الحدود الشرقية آنذاك فإن الأخير أبلغ الأمير الإنجليزي عام٦٧٠هـ/ ١٢٧١م بأنه أرسل أوامره للقائد صمغار في أناضوليا لغزو بلاد الشام واقترح على إدوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة المماليك، وقاد صمغار قوة مغولية من عشرة آلاف فارس، واحتلت حلب، وتقدمت قواته في البقاع حتى وصلت إلى مدينة عكا، ولكن القوة المغولية انسحبت إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبرس إلى تلك المنطقة، وهذه الغاره على شمال بلاد الشام كانت هي كل ما فعله كتبغا لمساعدة حليفه الإنجليزي، أما قوة إدوارد فلم تفعل أكثر من غارة مماثلة على حصن مملوكي صغير قاقون[١].

ولكن زوال خطر حملة إدوارد وانتهاء حملة لويس التاسع بوفاته أطلق يد المماليك في المنطقة، لتأديب كتبغا على حملته التي أرسلها إلى بلاد الشام فترة وجود إدوارد بها ورفض عروض الأخير للصلح التي أرسلها عن طريق ملك أرمينيا الصغرى تارة وحكام سلاجقة الروم تارة أخرى، تتوقف قواته عن الإغارة على القلاع الصليبية بها، وأرسل سفنه

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ٥٧٣.
قاقون : حصن بفلسطين قرب الرملة وقيل هو من عمل قيسارية من ساحل الشام ياقوت الحموي،معجم البلدان،ج٤،ص٢٩٩.

لغزو قبرص نفسها عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م، ولكنها تحطمت قرب الجزيرة، وأسرت قواته هناك[١].

ولم يكن الغرب الأوروبي غافلاً عن حقيقة أنه مالم ترسل نجدات سريعة للصليبيين في الشرق فإن البقية سوف تنهار أمام المماليك، خاصة وأن البابا الجديد جريجوري العاشر(٦٧٠-٦٧٥هـ ١٢٧١/١٢٧٦م) كان بطريركاً لمملكة بيت المقدس في عكا من قبل، وكان عضواً في حملة الأمير إدوارد، ولهذا دعا هذا البابا إلى عقد مجمع مسكوني عالمي في مدينة ليون الفرنسية في عام٦٧٢هـ/١٢٧٤م ليبحث على رأس موضوعاته وسائل تقوية الكيان الصليبي، وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذه، وقد أرسل كتبغا خان سفارة لحضور هذا المجمع مكونه من ستة عشر عضواً من بينهم عدد من الرهبان اللاتين والمترجمين، وقد قدم البابا سفراء كتبغا خان للحاضرين في نهاية الجلسة الرابعة لأعمال المجمع عام٦٧٢هـ/١٢٧٤م حيث تليت رسالة الإيلخان المغولي باللغه اللاتينية، وكانت تتضمن تحالف كتبغا خان مع المسيحيين التابعين للكنسية الرومانية[٢].

وفي حركة إعلامية بارعة من كتبغا خان فإن ثلاثة من سفرائه المغول طلبوا من البابا تعميدهم على المذهب الكاثوليكى، وقام بذلك

(١) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص٣٣٩-٣٤٢؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٥٩١-٥٩٤.

(١)عادل إسماعيل محمد هلال :العلاقات بين المغول وأوروبا،ص٧٢-٧٧.

كاردينال أوستيا أمام الجميع في جلسته، وقد قوبل هذا التصرف بترحيب من ممثلي كنائسي غرب أوروبا، وقد عرج سفراء المغول في طريق عودتهم للشرق على روما لتسليم رسالة البابا جريجوري العاشر لمليكهم، وفي رسالته المؤرخة عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، فإن البابا أشار إلى الوعد الذي تلقاه مبعوث الإيلخان بأن سيدهم سيعتنق الدين المسيحي، ووعد جريجوري العاشر في رسالته كتبغا خان بإرسال سفراء من لدنه في موعد لاحق لإبلاغه بما يتلقاه من معلومات من الأمراء العلمانيين بخصوص الحملة الصليبية التي يجري إعدادها للشرق للانضمام لقوات المغول ضد المسلمين، ويبلغة أيضاً أن الكرسي البابوي يكرس الوقت والجهد معاً ليس فقط لمصير أرض المسيح، ولكن أيضاً لسعادة الملك الفارسي والشعب الذي يحكمه، وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها جريجوري العاشر لتهيئة المناخ في أوروبا للقيام بحملة صليبية للشرق، فإن الوعود التي تلقاها من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها للتنفيذ؛ لانشغال كل منهم بمشاكله الإقليمية(١).

ومات (جريجوري العاشر-Gregory x)عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، وبموته هدأت الحملة الصليبية التي اذكتها شخصية هذا البابا، الذي يعتبر أكثر البابوات في النصف الثاني للقرن الثالث عشر اهتماماً بالكيان الصليبي في الشرق، وفي تلك الأثناء كانت قوات المماليك قد وجهت

---

(١) عادل إسماعيل محمد هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص٧٢-٧٧.

ضربة أخرى لأرمينيا الصغرى عام٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، وذلك لأن ملكها ليون الثالث(٦٦٩-٦٨٨هـ/ ١٢٧٠-١٢٨٩م) قد حصلت منه أذية للتجار المسلمين، وصار يستميل الفرنج إلى التتار[١].

بل إن بيبرس أراد أن يوجه لطمة أخرى مباشرة إلى ايلخانية فارس، فاختار أن يهاجم بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشمولة بالحماية المغولية، وذلك بالتعاون والدسيسة من وزير السلاجقة، واستطاعت قوات المماليك تمزيق الجيش المغولي في الأناضول عند إبلستين عام ٦٧٥هـ/١٢٧٧م[٢].

ولم يستطع الإيلخان المغولي أن يفعل شيئاً سوى إعادة إرسال سفارة عاجله للبابوية ولملوك الغرب الأوروبي، وأعاد كتبغا على مسامع هؤلاء وعوده السابقة بالانضمام لقواتهم فور وصولها للشرق، ولكن (فيليب الثالث- Philiplll)ملك فرنسا(٦٦٩-٦٨٤هـ/١٢٧٠-١٢٨٥م) لم يفعل أكثر من حسن استقباله للسفراء المغول ووداعهم، بل وتروي حولية فرنسية معاصرة أن الباريسيين اعتقدوا أن هؤلاء المغول جواسيس وليسوا سفراء، والحقيقة أن فيليب الثالث لم يكن يهمة من أمر الصليبيين شيئاً إلا بالقدر الذي يحفظ علاقاتهم بالبابوية من المخاطر، وربما يكون هذا الموقف ناجماً عن هزيمة لويس التاسع والد فيليب

---

(١) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٢.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج٢، ص٦٢-٦٣؛ ابن عبدالظاهر: المصدر السابق، ص٤٥٣-٤٧١.

الثالث في مصر عام٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وفشل حملته في تونس ووفاته هناك عام٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م؛ بحيث تركت آثارها على الفرنسيين؛ بل وأثرت تأثيراً خطيراً على الاقتصاد الفرنسي؛ خاصة إذا ما عرفنا أن حملة لويس التاسع على الشرق العربي(٦٤٦-٦٥٢هـ/ ١٢٤٨-١٢٥٤م)كلفت ما يعادل دخل فرنسا حينئذ لمدة ستة أعوام، فضلاً عن تورط فرنسا في حرب مع مملكة قشتالة على وراثة العرش كبدتها خسائر فادحة أبعدتها عن الاهتمام بالكيان الصليبي، ونفس الرد تقريباً سمعه سفراء المغول من الملك الإنجليزي عام٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م عندما طلبوا مساعدته ضد المماليك، وفي عام٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م أرسل البابا نيقولا الثالث(٦٧٦-٦٧٩هـ/ ١٢٧٧-١٢٨٠م) عدة رهبان لمغول فارس، للتبشير بالدين المسيحي، ولتعميد كتبغا نفسه، وكان هذا رأي قادة أوروبا في تنصير الإيلخان المغولي قبل التحالف معه، ولأنهم يخشون أن يورطهم الخان المغولي في حملة صليبية جديدة هم في قرارة أنفسهم لا يريدونها، وعندما باءت جهوده للتحالف مع الغرب بالفشل، قرر كتبغا خان الاعتماد على قوى المسيحية في غرب آسيا لمواجهة المماليك[1].

---

(١) عادل إسماعيل محمد هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، ص٨٠-٨٥.

ثانياً: علاقة المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها مع الأرمن:

سارع هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى بتقديم فروض الولاء والطاعة للمغول مدركاً أن هذه الوسيلة هي الوحيدة لإنقاذ مملكتة من مصير محتوم، وكذلك لإنقاذ المسيحيين في غرب آسيا من براثن المغول حتى لا يلاقوا نفس مصير المسلمين في الدولة الخوارزمية[١]. وكان ملك الأرمن قد قام بتسليم قادة السلاجقة الفارين من أمام المغول للمغوليين، وأرسل شقيقة سمباد القائد العام للجيش إلى قراقورم[٢] عاصمة المغول عام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م محملاً بالهدايا لحضور مؤتمر القوريليتاي الذي انعقد لاختيار كيوك خان على المغول في آب من ذلك العام[٣].

ولهذا فإن الخاقان الجديد أرسل تقليداً لهيثوم الأول واعتبره أحد تابعية، ومنحه وثائق تتضمن إعفاء بلاده وأديرته وكل المسيحيين من الضرائب المقررة للمغول عليهم[٤]، وإذا كانت وفاة كيوك خان

---

(١) عادل إسماعيل محمد هلال:العلاقات بين المغول وأوربا، ص ٩٧.

(١) قراقورم:كلمة تركية معناها الرمل الاسود وهي أقاصي بلاد الترك ،وقاعدة المغول ،وقيل أنها قرية جنكيز خان الذي أخرجته ونشأ بها.أبو الفداء: تقويم البلدان ،دار الطباعة السلطانية ،١٨٤٠م،ص٥٠٤-٥٠٥.انظر ايضاً:صبح الاعشى:القلقشندي،ج٤،ص٤٨٠-٤٨١.

(٢) فايز نجيب إسكندر:مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك،ص٨٢-٨٤.

(٣) عادل إسماعيل محمد هلال:العلاقات بين المغول وأوربا،ص٩٧.

عام٦٤٦هـ/١٢٤٨م حالت دون تنفيذ هذه الامتيازات؛ بل وأدت إلى تعريض مملكة أرمينيا الصغرى للسلب والنهب من قبل الفرقة المغولية في آسيا الصغرى، فإن زيارة هيثوم الأول لقراقورم عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وحضوره تتويج مانجو خاقان على المغول عام(٦٥٢-٦٥٨هـ/١٢٥٤-١٢٥٩م)كان لها أكبر الأثر في تقرير سياسة هذه المملكة تجاه المغول والمسلمين فيما بعد[١].

وكانت جهود الملك الأرمني في المدة التي قضاها في العاصمة المغولية منصرفة إلى إقناع الخاقان المغولي بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين، وبموجب معاهدة الصداقة والتحالف بين الطرفين، أكد مانجو خان على عدم تعرض المغول للأرمن بسوء؛ بل ومساعدتهم ضد أعدائهم، وإعفاء الكنائس والأديرة الأرمينية وجميع المسيحيين الشرقيين داخل الإمبراطورية المغولية من الضرائب، وتعهد هيثوم الأول بمعاونة المغول، وإمدادهم بالجيش والمؤن، وإرشادهم لجميع الطرق والمعابر عند الحاجة، ومنذ ذلك الحين أصبح ملوك أرمينيا الصغرى تابعين للمغول عامه ولمغول فارس خاصة، يؤلبونهم ضد جيرانهم المسلمين، ويشتركون معهم بجيوشهم ضد المماليك[٢].

وتحسنت العلاقات بين مملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية الصليبية بفضل جهود ووساطة الملك الفرنسي لويس التاسع أثناء وجوده

---

(٤) عادل اسماعيل محمد هلال :العلاقات بين المغول واوربا ، ص٩٧.

(٢) فايز نجيب إسكندر:مملكة ارمينية الصغرى ،ص٧٤.

بالشام ٦٤٨-٦٥٢هـ/١٢٥٠-١٢٥٤م ومن ثم توطدت روابط الصداقة بزواج حكام أنطاكية وقبرص وصيدا من بنات الأسرة الأرمينية الحاكمة[١].

وكان لهذا الأمر أكبر الأثر في جر إمارة أنطاكية هي الأخرى في علاقات صداقة وتحالف مع المغول ضد جيرانها المسلمين، مما جلب عليها المتاعب فيما بعد، كما أن ملك أرمينيا الصغرى حاول فرض حصار اقتصادي على المماليك، فأصدر أوامره المشددة عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م بمنع الأهالي من الاتجار مع المماليك، وكانت بلادة معبراً لكثير من المواد الأساسية مثل: الخشب، والحديد، الضرورية لصناعة السفن، وكذلك المواد الغذائية، وتجارة الرقيق، وهي مواد أساسية للنظام العسكري الذي قامت عليه دولة المماليك في مصر والشام، في الوقت الذي كانت فيه العراق وإيران (بلاد فارس) تحت حكم المغول، وكانت موانئ البحر الأسود والقسطنطينية ما زالت في يد اللاتين، وكذلك لجأ إلى تخفيض الضربية المفروضة على بضائع التجار الأوروبيين المارة ببلادة، وأصدر هو وحلفاؤه العديد من الامتيازات لهؤلاء التجار لجعل موانيء بلاده منافساً قوياً وبديلاً عن الموانئ المصرية، ولكن سرعان ما أثبتت الأيام أن ملوك أرمينية الصغرى راهنوا على الجواد الخاسر، وأنه صار عليهم أن يدفعوا ثمناً باهظا مقابل

(١) فايز نجيب اسكندر: مملكة ارمينية الصغرى، ص٩١-٩٤-٩٥.

المكاسب السريعة التي حصلوا عليها[١] في فترات انشغال المغول بحروبهم ومشاكلهم الداخلية[٢].

كان على هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى أن يقنع زوج ابنته بوهيمند السابع أمير أنطاكية وطرابلس بالتحالف مع المغول ضد الإمارات الأيوبية في الشام، وعندما ظهر هولاكو في شمال الشام أسرع بوهيمند بزيارته في معسكره عدة مرات[٣].

وقد اشترك الأخير مع قوات هولاكو وصهرة ملك أرمينيا في الاستيلاء على حلب، وفي المقابل أعاد هولاكو إلى بوهيمند السادس جميع الأراضي التي كان المسلمون قد استعادوها من إمارته منذ عصر صلاح الدين الأيوبي[٤].

وعندما تقدم جيش هولاكو إلى دمشق كان يعاونه الأرمن وقوات بوهيمند السادس، وطلب هيثوم الأول وبوهيمند السادس من كتبغا قائد الجيش التتري إغلاق مساجد دمشق وتحويل بعضها إلى كنائس! ففعل

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بولاق،القاهرة،١٢٩٠م،ج١٣،ص٤١٥؛ رشيد الدين فضل الله الهمذاني: جامع التواريخ، ج١، ص٦٥؛ فايد حماد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، القاهرة، (د. ت)، ص٧١.

(٢) عادل إسماعيل محمد هلال،العلاقات بين المغول وأوروبا ص٩٩-١٠٠.

(٣) ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر ، ص٣٢٤.

(٤) فايز نجيب إسكندر، مملكة أرمينية الصغرى ،ص١٠٥.

ذلك ضارباً عرض الحائط باستعطافات المسلمين؛ بل وطاف هيثوم وبوهيمند وكتبغا بشوارع دمشق علانية تجبراً وعتياً(١).

وفي معركة عين جالوت طلب كتبغا من الملك هيثوم الالتحاق به وإمداده، فجاء على رأس خمسمائة رجل وسارت القوات نحو مصر في معركة عين جالوت وهزموا فيها شر هزيمة على يد السلطان المملوكي المظفر قطز(٢).

اما بيبرس فإنه أرسل فرقة عسكرية للإغارة على أملاك بوهيمند السادس في طرابلس؛ لتشغل قواته عن مد يد العون لصهره وحليفة ملك أرمينيا الصغرى، التي تعرضت بلادة في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م لهجوم كاسح من قوات المماليك، وهزيمة الأرمن وتدمير قلاعهم وحصونهم، وقتل أحد أبناء هيثوم الأول وأسر (ليفون) مع عدد كبير من الأسرى والغنائم(٣).

وأسرع كل من هيثوم الأول وكتبغا خان بإرسال السفارات للغرب الأوروبي لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك وذلك في نهاية عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م(٤).

---

(١) سهيل زكار: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الخامس والثلاثون، ص٣٣٢.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٨.

(٣) عادل إسماعيل محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوربا،ص١١٠.

(٤) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٩٩-٥٠٠.

ومما يدل على حنكة بيبرس الدبلوماسية تأجيله تسليم ليفون بن هيثوم الأول لوالده، رغم الثمن الفادح الذي قبله الأرمن نظير إطلاق سراحه إلى ما بعد الانتهاء من أمر الاستيلاء على أنطاكية؛ حتى يضمن عدم تدخل قوات ملك الأرمن وحلفائه المغول لمساعده صهره بوهيمند السادس[١].

كما تذكر بيبرس أن الملك هيثوم كان بمثابة المستشار الاكثر ارتباطاً بالخان كتبغا، فبعث إليه ليتباحث معه، فيما كان خشداشة (سنقر الأشقر) حياً، وعندما بلغ هذا العرض إلى الملك بدأ في تحضير نفسه، واستعد للسفر إلى الشرق لملاقاة الخان كتبغا[٢].

وبعد أن تحقق للسلطان بيبرس المملوكي ما أراد أطلق سراح ليفون الذي أخذه والدة لكتبغا خان كي يوافق على توليته عرش أرمينيا الصغرى، واعتزل هيثوم بقية حياته في أحد الأديرة، وتحرك في سنة تولية ليون الثالث العرش سنة٦٧٠-٦٧١هـ/١٢٧١-١٢٧٢م بيبرس البندقداري من جديد للهجوم على كيليكية[٣].

---

(١) سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الخامس والثلاثون، ص٣٤٥.

(٢) عادل إسماعيل محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص١١٢.

(٣) كيليكية: هي أرمينيا الصغرى بالأرمينية، وتعرف كذلك بمملكة كيليكية، وهي تأسست على الساحل الجنوبي الشرقي للأناضول. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٤،ص٤٢٤.

غير أن الملك ليون أرسل إليه بعثة بمهمة خاصة، جعلته يعود إلى بلاده مصر، وقرر الملك ليون من جانبة التوجه إلى الشرق لزيارة كتبغا خان الذي استقبله واعتنى به، وقدم له هدية تمثلت بعشرة آلاف مقاتل ليأخذهم معه إلى بلاده من أجل تعزيز الدفاع عنها، على أن يقوم الخان بزيارة بلاد كيليكية بعد بضعة شهور، هذا ولم يصطحب الملك ليون معه سوى عدد قليل من الرجال؛ ثم عاد إلى بلاده(١).

ثالثاً: علاقة المغول الخارجية ضد المماليك وموقف بيبرس منها مع السلاجقة

ترجع علاقة السلاجقة بالمغول إلى عهد هولاكو، وذلك عندما ذاع نبأ وصول هولاكو إلى فارس، تلقى هولاكو الثناء والترحيب من أتباعه الجدد، ابتداء من شمس الدين كرت ملك هراة(٢)، ومن السلغري أبو بكر سعد بن زنكي أتابك فارسا(٣) إلى السلجوقيين القائمين في آسيا الصغرى(٤) وهما كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع(١).

---

(١) سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٥، ص٣٤٩-٣٥٠.

(٢) شمس الدين كرت: هو صاحب هراة، وهو فخر الدين بن شمس الدين كرت صاحب سجستان. انظر: العيني:عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج١،ص١٢٨.

(٣) هو صاحب أتابك فارس أبو بكر بن سعد بن زنكي السلغري، استولى على جزيرة أوال وقتل آخر الحكام العيونيين محمد بن أبي ماجد، ولا يعلم متى انتهت سيطرة السلغريين على الجزيرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٤.

(٤) فؤاد عبدالمعطي الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص٢٣٧.

وبحكم موقع بلادهم الاستراتيجي دخل سلاجقة الروم في دوامة الصراع بين المغول والمماليك، وتقلبت سياستهم وفقاً لتغير ميزان القوى، فهم تارة مع المغول يستمدون العون منهم ويحاربون في صفوفهم وتحت رايتهم، وتارة أخرى يستنجدون بالمماليك ليحرروهم من سيطرة المغول، إلا أنه وجدت فئة من الأمراء حملت لواء المعارضة للوجود المغولي في البلاد، فتعرضت للضغط الشديد، مما اضطرها إلى الهجرة إلى بلاد الشام ومصر، ونصَّب المغول في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م غياث الدين كيخسرو الثالث(٢) سلطاناً على سلاجقة الروم بناء على رغبة الوزير معين الدين برواناه(٣)، وكان عمره آنذاك ست سنوات، وفي

---

(١) عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، وهو كيكاوس الثاني، وركن الدين قلج أرسلان بن كيخسرو، وهو قلج أرسلان الرابع، راجع فيما يتعلق بأحداث هذه الفترة في سلطنة سلاجقة الروم، ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية، تحقيق: هوتسما، ١٩٠٢م، ص٢٦٣-٢٦٨.

(٢) كيخسرو الثالث وهو غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان، سمي سلطاناً على سلاجقة الروم وهو في السادسة من عمره سنة ١٢٥٦م، وهو ابن قلج أرسلان الرابع، والذي مثل خط ضعف السلاطين المتحكم بهم من قبل الوزير بروانه معين الدين سليمان. ابن بيبي:الأوامر العلائية في الأمور العلائية،ج١،ص٢٦٣-٢٦٨.

(٣) البرواناه: لقب فارسي معناه الحاجب، وهو هنا لقب معين الدين سليمان، الوصي على السلطان السلجوقي القاصر غياث الدين ووزيره. انظر: ابن تغري بردي:الروض الزاهر، ص٣٩٦، حاشية المحقق رقم ٢؛ ابن تغرى بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي،تحقيق فهيم محمد علوي شلتوت،دار الكتب والوثائق القومية، ج١، ص٣٩٩.

رواية سنتان ونصف، فتولى بروانه مقاليد الأمور في البلاد ليديرها وفق مصلحة بلاده(١).

وتعرض كتبغا آنذاك للضغط الشمالي وهم القبيلة الذهبية، فوقع بين فكي الكماشة الشماليه المتمثلة بخانات القبيلة الذهبية، والجنوبية المتمثلة بالمماليك، فاظطر إلى فتح باب المفاوضات مع بيبرس لحل المشاكل العالقة بينهما بالطرق السلمية، ويبدو أن البروانه لعب دوراً بارزاً في التقريب بين وجهات النظر ليجنب بلاده مزيداً من البؤس؛ لأن المعركة المقبلة إذا حصلت ستجري على أرض الروم(٢).

قامت سياسة بيبرس تجاه السلاجقة على أساس ضم أملاكهم إلى أملاكه في بلاد الشام ومصر، ونتيجة لازدياد الضغط المغولي على بلاد الروم، مال بروانه إلى جانب المماليك، وبعث إلى بيبرس برسالة، عرض فيها الولاء له، ورحب بيبرس بالتعاون مع الحكومة الرسمية للسلاجقة، إلا أنه اعتذر عن عدم القدوم فوراً على أن يوافيه في العام القادم(٣).

---

(١) ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية، ص٣٠٢-٣٠٣؛ الاقسرائي، محمود: مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار، كوشش عثمان توران، طهران، ١٣٦٢م، ص٥٧.

(٢) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: تاريخ الملك الظاهر، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، فيسبادن، ١٩٨٣م، ج٣،ص٣٤-٣٥.

(٣) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر،ج٣، ص٧٩؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٣٤.

والواقع أن الظروف لم تكن مواتية للمجازفة بحملة عسكرية غير مضمونة النتائج؛ لأن مثل هذه الحملة، تتطلب استعدادات ضخمة، نظرا لبعد المسافة، وقوة العدو من جهة، وحتى يتحقق من ولاء السلاجقة التام له من جهة أخرى، وبعد فشل المغول في الاستيلاء على البيرة، ازداد برواناه تعلقاً بدفع بيبرس للقدوم إلى بلاد الروم، وأدرك أنه لا مقام له في البلاد مع وجود المغول فيها، ويبدو أن الملك الظاهر بيبرس لم يكن مستعداً للقيام بمغامرة حربية غير مضمونة النتائج؛ لأنه علم بأن أمراء السلاجقة منقسمون على أنفسهم بين مؤيد له ومعارض، لذلك اعتذر لبرواناه بأن عساكره لا يمكنهم قطع الدربند[١] في هذا الوقت من السنة إلا بعد انقضاء فصل الربيع، وهو مصمم على التوجه إلى بلاد الروم إن عاجلا أو آجلاً[٢].

وهاجر في هذه الأثناء الأمراء الموالين للظاهر بيبرس إلى دمشق واجتمعوا به، وقد رحب بقدومهم، كما أنتشرت الفتن والثورات في بلاد

---

(١) الدربند: هي مدينة "باب الأبواب"، سميت بذلك لأنها كانت الباب الذي يمر منه الراغب في العبور إلى أوروبا من آسيا الصغرى أو العكس، وهي مثلث حلقة وصل بين الحضارات المختلفة التي شهدتها المنطقة أو أحاطت بها. البغدادي:مراصد الاطلاع،ج٢،ص٥٢١.

(٢) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ج٣، ص١٢٨-١٢٩.

الروم نتيجة للفوضى السياسية؛ حتى كاد الموقف يخرج عن سيطرة البرواناه[١].

وأشاع أحد الثائرين وهو شرف الدين بن الخطير[٢] في أرجاء البلاد عن قرب وصول الجيش المملوكي، فخرج وفد سلجوقي إلى بلاد الشام واجتمع مع بيبرس في حمص، وحثة على السير بسرعة لإنقاذ الموقف[٣].

وفي موقعة البستان عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[٤] أضحى باستطاعة بيبرس أن ينفذ مشروعه بضم بلاد الروم، فخرج بيبرس من القاهرة على رأس جيش كبير في شهر رمضان عام ٦٧٥هـ/١٢٧٧م متوجهاً إلى دمشق[٥].

وتحرك برواناه من جهته ضمن دائرة مصلحة بلاده، فأرسل إلى الزعيم المغولي رسالة يكذب ادعاءات ليون، ويطمئن المغول عن الوضعين السياسي والعسكري في البلاد، مما حمل الأيلخان على

---

(١) المصدر نفسه: ص١٥٤-١٥٥.

(٢) شرف الدين الخطير: هو شرف الدين بن مسعود الخطير أخو ضياء الدين الخطير المعروف بكاتب سلار، وكان قد خدم عند الأمير أرغون. المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٧ ،ص٤٦٣.

(٣) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٦٠.

(٤) البستان:هي معركة مهمة وحاسمة بين الظاهر بيبرس سلطان مصر، والمغول المتحالفين مع جيش الأتراك السلاجقة في الإبلستين في آسيا الصغرى. رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج٢، ص٦٢.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٦٢٧.

تصديقة، ويبدو أن أنباء القوات المملوكية في بلاد الروم وصلت إلى مسامع كتبغا، فقرر مواجهة الموقف، ووضع خطة للتصدي للمماليك[١].

وتحركت القوات المغولية، يصحبهما معين الدين بروانا‌ه، على طريق البستان[٢].

ووصلت القوات المملوكية في اليوم التالي إلى الجبال المشرفة على صحراء هوني، فرأى بيبرس جنود العدو متأهبين في السهل فنزل وعبأ عساكره مقابلهم[٣].

ونهب المماليك المعسكر المغولي، وقتلوا الأسرى، واستناداً إلى معلومات ابن العبري، فإن برواناه قدم للفرسان المغول قبل بدء المعركة لحماً وخمراً، وعندما ابتدات المعركة كان هؤلاء قد لعب الخمرة برؤوسهم، فلم يستطيعوا تحقيق التوازن على الحصار، كما أنهم لم يتمكنوا من التركيز خلال القتال، مما أثر في النتيجة النهائية للمعركة[٤].

وأرسل برواناه يهنئ بيبرس بالجلوس على العرش، فكتب إليه يأمره بالحضور ليقلده أمور البلاد، فطلب برواناه مهلة خمسة عشر يوماً،

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٣٥؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص١٧٥.

(٢) ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور،تحقيق كامل مراد ،القاهرة،١٩٦١م، ص٤٥٨.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور،ص٤٥٦-٤٦٢.

(٤) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٣٥.

وكان قد خطط للاستعانه بالمغول، ولعله أراد إنهاك قوة الفريقين حتى تخلو الساحة للسلاجقة، والجدير بالذكر أن بروانه تميز باتباع سياسة متقلبة، ومهما يكن من أمر فقد كتب إلى كتبغا يحثه على إرسال نجدة على وجه السرعة ليعيد الأمور إلى نصابها[١].

أقام بيبرس عشرة أيام في قيصرية، علم أثناءها بمراسلة بروانه لكتبغا، فخرج من المدينة خشية منهم؛ لأن عساكره قد أنهكهم التعب، ونفذت الأقوات، ونقص العلف، ونفقت معظم خيله، فجاءه رسول من قبل بروانه يستوقفه، ويبدو أنه أراد تأخير رحيله حتى وصول الجيش المغولي، لكن بيبرس كان أذكى من أن يقع في حبائل بروانه؛ ثم رحل عائداً إلى دمشق، وما إن علم كتبغا بأنباء هذه الكارثة التي حلت بقواته، حتى تولى بنفسه قيادة جيش كبير العدد، خرج به من تبريز[٢] باتجاه بلاد الروم، ولما وصل إلى البستان، أرسل إلى بيبرس يدعوه للعودة[٣] وقام بقتل رجال السلاجقة وعلى رأسهم البروانه[٤].

---

(١) ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٤٦٨.

(٢) تبريز: هي أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسنة، ذات أسوار محكمة بالآجر والحصى، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣.

(٣) ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية، ص٣١٩؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص١٨٣.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج٢؛ ص٦٢-٦٣.

المبحث الرابع: وفاة القائد بيبرس وظهور قلاوون، ونتائجه:

لم يلبث أن توفي الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بعد أن قام بجهود كبيرة في تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وبخاصة الصليبيين والمغول، والواقع أن السلطان بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، لأن الفترة الطويلة نسبياً التي قضاها في الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التي أضفت على الدولة المملوكية قدراً من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها(١).

واختلفت الروايات حول سبب وفاته، ففي رواية أن بيبرس توفي متأثراً بجراحه التي أصيب بها في حملته الأخيرة على بلاد الأناضول، ويذكر ابن العبري أنه أصيب بسهم في رجله، وظل السهم أياماً كثيرة، ولما أذن للجرّاح أن يخرجه فارق الحياة(٢).

ويذكر بعض المؤرخين أن الظاهر بيبرس كان مولعاً بعلم النجوم، فقيل له إنه سيموت ملك بالشام في سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م مقتولاً بالسم، فاغتم لما سمع، وكان فيه حسد لمن يطاوله في الشجاعه والإقدام خوفاً منه أن ينزع منه الملك، وفي الموقعة التي جرت مع المغول في إبلستين سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م قاتل معه الملك القاهر بهاء الدين عبدالملك بن

---

(١) مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديدفي تاريخ ابن العميد، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص٢٣٤-٢٣٧.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٣٣٦.

الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأبلى في الموقعة بلاء عظيماً أنكى به العدو، وتعجب الناس من شجاعته وإقدامه، فأثر ذلك عند الظاهر بيبرس، وأخذ يتحايل في تسميمه ليصح عنده ما دلت عليه النجوم من موت ملك بالشام، وكان عبدالملك بن عيسى يطلق عليه اسم الملك، فدعاه الظاهر لشرب القمز (نوع من النبيذ) كان بيبرس مولعاً به، وقد أعد سماً من غير أن يشعر به أحد، ولما حضر عبدالملك أخذ بيبرس كأساً ليناوله بيده إلى عبدالملك، وكان هذا لمن يريد السلطان أن يكرمه، وقام بيبرس لقضاء حاجته فوضع بيبرس السم في الكأس، ولما عاد بيبرس إلى المجلس تناول الكأس وشربه وهو لا يعلم أنه الكأس الذي وضع فيه السم، فأحس بمفعوله وعلم أنه قد شرب بقايا السم الذي كان في الشراب، فتقيأ فلم يفده، ولم يلبث أن توفي، وهكذا انتهت حياة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي[١].

تولي السلطان قلاوون العرش عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م:

كان الأمير سيف الدين قلاوون أحد المماليك البحرية، اشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر، أحد مماليك العادل الأيوبي بألف دينار، وهو مبلغ كبير يدل على ما تمتع به من مواهب، وغالى في قيمته لحسن صورته وشجاعته، فعرف بالألفي، ولما توفي الأمير علاء الدين، انتقل قلاوون

---

(١) بيبرس الدواداري: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية، تحقيق: عبدالحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية،القاهرة، ١٩٩٣م، ص٦١-٦٢.

إلى خدمة الملك الصالح أيوب، فأصبح لقبة: "الألفي العلائي الصالحي النجمي أبو الناصر محمد"، وسرعان ما ظهر على المسرح السياسي من خلال الأحداث التي رافقت قيام دولة المماليك البحرية، وأضحى أحد زعماء البحرية البارزين، وقد خرج من مصر مع المماليك الذين فروا عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاي، في عهد أيبك؛ ثم عاد إليها نتيجة الأحداث التي أثارها المغول في بلاد الشام، والتي أدت إلى اتحاد المماليك، وبرز في عهد السلطان بيبرس كأمير قوي، فارتفعت مكانته وعهده، واعتمد عليه في كثير من أعماله الحربية والسلمية[١].

كان قلاوون ذا نزعات سلطوية، حاد الذكاء، راح يعمل على تنفيذ مآربه تدريجياً، ولا بد أنه شعر بالغيرة عندما تولى بيبرس عرش السلطنة، وإن لم يستطع أن يعبر عن شعوره نظراً لقوة هذا الأخير، وأدرك بيبرس من ناحيته تطلعات قلاوون نحو السلطة، وشعر بازدياد نفوذه وأنه سوف يقف حجر عثرة في تحقيق هدفه بحصر السلطة في بيته، لذلك عمل على استمالته، فزوج ابنه الملك السعيد بركة خان من

---

(١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م،ج٤، ص١٥٨؛ النويري:نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، ص٧-٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٢.

ابنته غازية خاتون، ظناً منه أنه لن يقوم على انتزاع السلطة من يد زوج ابنته[1].

ويبدو أن أطماع المماليك كانت أقوى من رابطة المصاهرة، فبعد وفاة بيبرس طمع قلاوون بالحكم؛ لكنه كان حريصاً على عدم كشف مطامعه؛ لأن الظروف بنظره لم تكن مواتية للإقدام على هذه الخطوة، وبايع الملك السعيد، وراح يعمل من وراء حجاب على إزاحته عن الحكم، فتركه يمضي في انحرافه دون أن يحاول نصحه، وعندما اشتدت نقمة الأمراء عليه واستنجد الملك السعيد بحميه الذي نصحه بالتنازل عن العرش، وكان باستطاعته تولي عرش السلطنة، إلا أنه أحجم عن ذلك، وتظاهر بالزهد وبايع الملك بدر الدين سلامش[2]، وقنع بمنصب الأتابك، ثم استغل منصبه بحكمة بالغة حتى لا يستثير حقد بقية المماليك، لكنه كان الحاكم الفعلي للبلاد نظراً لصغر سن سلامش، وراح يعمل بتؤدة وهدوء حتى مكن لنفسه، فقبض على كثير من الأمراء الظاهرية الذين كانوا لا يزالون على إخلاصهم لبيت بيبرس، وعزل كثيراً من النواب

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، ص٧-٨؛ المقريزي:المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٣٨.

(٢) العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس برز أثناء النزاع الذي نشب بين الملك السعيد والأمراء، الأمير سيف الدين قلاوون الألفي كمرشح بارز لتولي السلطة. بيبرس الدواداري:تاريخ الدولة الايوبية ودولة المماليك البحرية ، ص٩٠؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣، ص٣٩٨-٣٩٩.

ممن عينهم بيبرس وابنه بركة خان، وأحل محلهم أنصاره، ثم تخلص من الأمراء المنافسين له، واستمال المماليك البحرية الصالحية بالإحسان إليهم[1].

واخيراً : وبعد أن باتت الأمور مواتية لتولي السلطة، أقنع الأمراء بوجوب تولي رجل كامل العرش المملوكي، وبأن لا فائدة من استمرار صبي في الحكم، فعزل السلطان سلامش بعد ثلاثة أشهر من توليته باعتباره صبياً لا يستطيع النهوض بأعباء الحكم، وتولى عرش السلطنة مكانه وذلك في عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وتلقب "بالملك المنصور"، وبايعه الأمراء والمقدمون وخطب له على المنابر، ومنحه الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله تفويضاً بالحكم، وأوصاه فيه كما جرت عليه العادة بمراعاة العدل، والقيام بالجهاد، وبالرغم من هذا التفويض الذي أكسب حكمه الصفة الشرعية، فإن قلاوون لم يقدم للخليفة الاحترام اللازم له، وظل نفوذه خاملاً في عهده، ووضعه في الإقامة الجبرية في القلعة، وبذلك يكون قلاوون قد نقل السلطة من البيت الظاهري ليحصرها في بيته[2].

---

(١) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد: المختصر في أخبار البشر، ج٧، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٦م، ص١٣.

(٢) القلقشندي:صبح الاعشى، ج١٠، ص١٢٠-١٢٤.

وكان من نتائج تولي قلاوون السلطة:

(١) خروج سنقر الأشقر نائب الشام الذي رفض الاعتراف بخلع الملك العادل سلامش، وتولية قلاوون سلطنة مصر[١].

(٢) تحقيق كثير من الإصلاحات الداخلية والانتصارات الخارجية على المغول والصليبيين، فضلاً عما كان يمتاز به من الصفات الطيبة والخصال الحميدة، كذلك انتعشت في عهده أحوال الدوله السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية[٢].

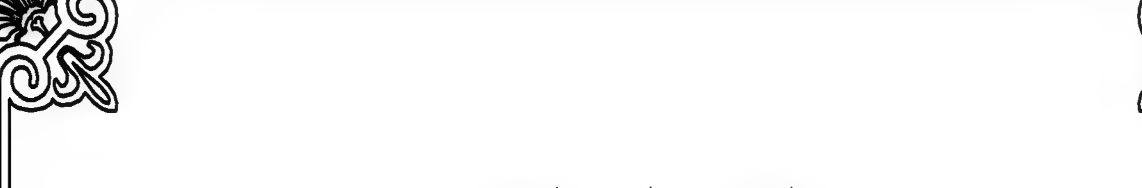
(٣) كما يرجع له الفضل في تكوين وظهور الدولة المملوكية الثانية، وهي دولة المماليك البرجية أو الجراكسة، ذلك أنه كان مغرماً بشراء أعداد كبيرة من المماليك، انتقى منهم نحو ثلاث آلاف وسبعمائة من الجركس أسكنهم أبراج القلعة وسماهم البرجية، واعتنى بتربيتهم وإعدادهم حتى صار يعتمد عليهم في الحرب والإدارة، وكان برقوق اول سلاطين المماليك البرجية من أفراد هذه الطائفة[٣].

---

(١) محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون، القاهره، ١٩٤٧م، ص٢٣.

(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين في تاريخ الملوك والسلاطين ، تحقيق: محمد جمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م،ج٢، ص٣٠٩-٣٠٨.

(٣) ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١٨-١٩.



الفصـل الثانـي:

أسباب معركة حمص الكبرى

المبحث الأول: الأسباب غير المباشرة لمعركة حمص الكبرى:

أولاً: الأسباب السياسية.

ثانياً: الأسباب الاقتصادية.

ثالثاً: الأسباب الاجتماعية.

رابعاً: الأسباب الدينية.

المبحث الثاني: الأسباب المباشرة لمعركة حمص الكبرى:

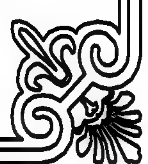
أولاً: ثورة سنقر الأشقر وتحالفه مع المغول.

ثانياً: غارات المغول على بلاد الشام وتحالفهم مع الصليبيين.

ثالثاً: صلح سنقر الأشقر.

رابعاً: موقف قلاوون من أعدائه.





الفصل الثاني:
أسباب معركة حمص الكبرى

المبحث الأول: الأسباب غير المباشرة لمعركة حمص الكبرى:

لم تكن هزيمة المغول في معركة عين جالوت يعني انحسار خطرهم عن البلاد الشامية؛ إذ أنهم ظلوا يتحينون الفرص للانقضاض على المماليك متخذين من العراق قاعدة لتحركاتهم(١)، **وكان تحركهم لعدة أسباب وهي:**

أولاً: الأسباب السياسية:

طمع هولاكو منذ البداية أن يؤسس لنفسه بوصفه تابعاً لأخيه منكوخان إمبراطورية خاصة في الغرب، وقد يكون أخوه الخاقان قد أوعز له بذلك ليكون بينهم الملك والسلطان، وحقق هولاكو هدفه الأول بالقضاء على طائفة الإسماعلية وجعلها عبرة لغيرهم ممن يفكرون في المقاومة؛ ثم سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية واحتلال بغداد، فتحرك إلى همدان وعسكر فيها ليكون قريباً من العاصمة العباسية، وكان أول عمل قام به هولاكو أن أرسل إلى المستعصم الذي بويع بالخلافة في جمادى الآخرة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، آخر الخلفاء العباسيين في شهر رمضان سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م رسالة يدعوه فيها إلى تجريد

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: الظاهر بيبرس، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٩٤.

حصون بغداد وأسوارها من أدوات الدفاع، كما دعاه إلى الحضور بنفسه شخصياً وتسليم المدينة له، فإن فعل ذلك ضمن حريته وحفظ مركزه، وإن أبى واستكبر أحل بنفسه وأهله وبلاده الدمار والخراب؛ لأن جيوش المغول سوف تسير إلى بغداد لا محالة وتستولي عليها وتنزعها من سلطانه، وجاء رد الخليفة المستعصم على هولاكو شديداً؛ ثم توالت الرسائل بين هولاكو والمستعصم[١].

وشرع هولاكو بعد أن يئس من إقناع الخليفة المستعصم بالله العباسي بالتسليم، في الزحف نحو العراق، وسار بعساكر التتار إلى مدينة بغداد فنازلها[٢]، وبذلوا في أهلها السيوف وأنزلوهم من حياض الموت أمر المناهل، وأكثروا الأيامى واليتامى والأرامل، ولم يرحموا شيخاً كبيراً ولا طفلاً صغيراً، وأخذ المستعصم بالله أسيراً، وأحضروه إلى هولاكو فأمر بأن يجعل في عدل ويداس بالأرجل حتى الموت، ففعل به ذلك، وأحرقوا حرمة الدار والحرم، واحتوى على الخدم، واستولى العدو على ذخائر الخلافة وخزائنها، وأموالها، وجواهرها، ونهب مدينة بغداد[٣].

---

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج٢، ص١٧٥ ؛ فؤاد الصياد، تاريخ المغول، ج١، ص٢٧٠.

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١م، ص١١٨.

(٣) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ، ج٤٢، ص٣٥-٤٠.

وما أن تم احتلال بغداد وتحطيم الخلافة العباسية حتى رنا ببصره صوب الغرب؛ حيث بلاد الشام، وكان أول ما أقدم عليه أن كلف أحد قواده ويدعى "أرقيونويان" بالسير إلى أربيل، وكان يعيش بها خليط من الناس ما بين عرب وفرس، وكان العنصر الكردي هو الغالب فيها، وتمكن أرقيوبوقا من الاستيلاء على مدينة أربيل، وبذلك أصبح المغول يشرفون على حدود الشام، تنازعت بلاد الشام في ذلك الوقت ثلاث قوى هي الإمارات الصليبية، والأرمن في آسيا الصغرى، وأمراء البيت الأيوبي، وكان هؤلاء الأيوبيون يحكمون مدن ميَّافارقين[١]، وماردين[٢]، وحصن كيفا، والكرك[٣]، ودمشق، وحماة[٤]، وحمص، وهؤلاء الأمراء من أسرة واحدة وينتسبون إلى البطل صلاح الدين الأيوبي، كانوا في نزاع دائم وخلافات مستمرة وتطاحن على السلطة والسلطان، ورغم الخطر المغولي القادم إلا أن أمراء البيت الأيوبي لم يقدروا الموقف

---

(١)ميافارقين:أشهر مدينة بديار بكر،البغدادي،مراصد الاطلاع،ج٣،ص١٣٤١.

(٢)ماردين: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر وداد ونصيبين وفيه اسواق ومدارس وربط، ودورهم فيه كالدرج ،كل درب يشرف على ماتحته من الدور،ليس دون سطوحهم مانه،والماء عندهم قليل ،وأكثر شربهم من صهاريج معدة في بيوتهم .البغدادي:مراصد الاطلاع ،ج٣،ص١٢١٩.

(٣) الكرك: حصن على مرتفع تحيط بها أدوية إلا من جهة الربض، حصنه فولك صاحب بيت المقدس حوالي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م. أبو شامة: كتاب الروضتين، تحقيق عزت العطار الدمشقي ،القاهرة،١٩٤٧م،ج١ ، ص٥٢٥، حاشية ١.

(٤) حماة: مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة، يحيط بها سور محكم، وجامع يشرف على نهرها المعروف بالعاصي، وهي مدينة قديمة جاهلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٠.

وداهمهم هولاكو وهم على خلافاتهم، فاصطادهم الواحد تلو الآخر، وقضى عليهم جميعاً، أما مصر فكانت تحت سيطرة أمراء المماليك البحرية، وهم من الجركس وأتراك القبجاق، وقد تعهدوا بإضعاف شوكة المغول والوقوف في وجههم انتقاماً منهم لما حل بالإسلام من خطوب ومحن على أيديهم، وحفاظاً على سلطتهم في مصر(١).

خضعت بلاد الشام للمغول بعد أن احتلوها بحد السيف وأرغموا أهلها على الخضوع لهم وهولاكو بعيداً عنها، وبقي إتمام الخطوة التالية وهي الاستيلاء على فلسطين ومصر بقيادة كتبغا ومعه عشرة آلاف جندي مغولي، يعاونه في ذلك حلفاء المغول من المسيحية وعلى رأسهم "هيثوم" ملك أرمينية، وتمكن المماليك حكام مصر من قهر المغول وإيقاف زحفهم مبددين خرافة الجيش المغولي الذي لا يقهر(٢).

وذلك في صباح يوم الجمعة ٢٨رمضان سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م؛ حيث بدأت المعركة بهجوم عنيف من فرسان المغول على صفوف المماليك في "عين جالوت" قرب الناصرة بين بيسان ونابلس شمال فلسطين، وحمل قطز بنفسه على المغول في تلك الموقعة، وكاد أن يفقد فيها حياته غدراً، إذ سدد إليه مغولي من الخلف، فوقع السلطان

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤١١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ص٦٣.

قطز على الأرض، وأسعفه الفرسان وفتكوا بالمغولي، وأنزل الجيش المملوكي بالمغول هزيمة منكرة نتيجة الخطة المحكمة التي وضعها قطز بنفسه، فشتت قواهم وبدد شملهم، ووقع القائد المغولي "كتبغا" أسيراً، واقتيد إلى السلطان قطز، وجرت محاورة قصيرة بين الطرفين، قال قطز لكتبغا: أترى كيف أصبحت مأسوراً بعد أن كنت آسراً؟ فأجابه كتبغا: إن أمرت بقتلي فهي إرادة الله وليست إرادتك، والويل لكم إن سمع هولاكو بقتلي يا سفاكي دماء أسيادكم، فأمر السلطان قطز بقطع رأسه، فضربه الأمير المملوكي جمال الدين أقوش الشمسي بسيفه، ويذكر الذهبي أنه كان عظيماً عند التتار، معتمداً عليه لشجاعته ورأيه، وكان هولاكو يحترم رأيه؛ حيث كان شيخاً مسناً كافراً يميل إلى النصارى(١).

وأعمل الجنود المماليك السيف في الرقاب، وذبحوا كل مغولي كان على أرض المعركة في الفترة ما بين الصباح حتى الظهيرة، وقتل في معركة "عين جالوت" معظم قادة المغول، وجزء كبير من مقاتليهم ونجت قلة قليلة تمكنت من الهروب؛ حيث تفرقوا في كل

---

(١) الذهبي، أبو عبدالله: العبر في أخبار من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٦م،ج٥، ص٢٤٧.

اتجاه بحيث ما إن جاء العصر حتى كانت أرض المعركة خالية تماماً من المغول، واستولى المماليك على غنائم هائلة لا تعد ولا تحصى[(١)].

لم يستطع هولاكو خان أن يتقدم نحو الغرب لانشغاله في حرب مع منافسيه البيت الجنكيزي، وكان على رأسهم "بركة خان" ابن جوجي خان القبيلة الذهبية "التون أوردو" الذي شعر بالخطر يهدده من جانب هولاكو خان بعد أن أثبت مقدرته في قيادة الجيوش المغولية التي قدمت من منغوليا وفتحت قلاع الإسماعيلية وحطمت الخلافة العباسية، وأراد بركة خان أن يستخلص لنفسه البلاد التي فتحها هولاكو خان ويوسع مملكته، واستمرت الحرب بينهما فترة طويلة انتصر فيها هولاكو[(٢)].

وما إن وصلت أنباء انتصار المسلمين في عين جالوت إلى دمشق حتى قام المسلمون فيها بالانتقام من العناصر التي تعاونت مع المغول، وفي مقدمتهم المسيحيين الذين دفعوا الثمن غالياً بسبب تعاطفهم معهم، ولما اقترفوه من أعمال مشينة ضد السكان المسلمين خلال فترة الاحتلال المغولي للمدينة[(٣)].

---

(١) محمد كرد علي: خطط الشام، ط٢، بيروت، ١٩٧٢م، ج٢،ص١٠٧-١٠٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٠؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر،ج٣،ص١٢٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية،ج١٣ ص٢٢٠-٢٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٠-٨١.

تابع قطز زحفه نحو دمشق بعد انتصاره، ودخلها بعد خمسة أيام، فاستقبل فيها استقبالاً حاراً، ثم أخذ يعمل على إعادة الأمن إلى نصابه، ومكافأة الأمراء الذين تعاونوا معه، فأعاد بعض الأمراء الأيوبيين إلى إماراتهم، بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة ودفع الجزية(١).

ومن جهة أخرى أنعم قطز على أمرائه وأعوانه، والجدير بالذكر أن قطز كان وعد بيبرس البندقداري بمنحه حلب وأعمالها إذا انتصر على المغول، ولكنه أخلف وعده، مما كان سبباً في حصول جفاء بين الرجلين، فتطور بعد ذلك إلى عداء(٢).

استأنف قطز رحلة العودة إلى القاهرة بعد ترتيب أوضاع بلاد الشام، وفي الوقت نفسه زال الخطر المغولي الذي أجبر المماليك جميعاً على الاتحاد، فتجددت النزاعات بين قطز ومماليكه المعزية من جهة، وبين المماليك البحرية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري من جهة أخرى، وكان الأمير بيبرس يتحين الفرصة للتخلص من قطز، فدبر مؤامرة مع أمراء البحرية لقتله في أول فرصة مناسبة، وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل الملك قطز إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة، وذلك أن قطز رغب في القيام برياضة الصيد، فلما فرغ من رياضته، وكان بعيداً عن معسكره، تقدم بيبرس وطلب منه امرأة من سبي المغول، وأجابه

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، ص٤٧٦-٤٧٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٨٢.

قطز إلى طلبه وأنعم عليه، وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد الملك، وكانت إشارة لجماعة المتآمرين، فقبض بيبرس على يده ليمنعه من الحركة، في حين انهال عليه بقية الأمراء بسيوفهم ورماحهم، وألقوه عند فرسه حتى أجهزوا عليه، عندئذ انطلقت جماعة المعارضة إلى المعسكر وأعلنت نبأ مقتل الملك قطز، وكان ذلك يوم السبت في ذي القعدة عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م[١] .

كان من الطبيعي أن تؤول السلطة بعد مقتل قطز، إلى قاتله الأمير بيبرس البندقداري الذي أضحى أقوى الأمراء البحرية من ناحية، فضلاً عن مواقفه الشجاعة في مواجهة المغول من ناحية أخرى[٢].

وبذلك حقق السلطان الظاهر بيبرس هدفة المنشود، بإشغال هولاكو عن التحالف مع الصليبيين، حيث أخذت الرسل تتردد بين بيبرس وبركة إلى أن قام بركة استجابة لدعوة الجهاد الإسلامي التي وجهها له الظاهر بيبرس، وهاجم هولاكو واشتبك معه في معارك حربية ضاربة، وفي هذا يذكر بركة في إحدى رسائله إلى بيبرس قوله: "وإنني قمت أنا وإخواني الأربعة لحربة (يقصد هولاكو) من سائر الجهات، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت علية من العمارة وذكر الله، والأذان، والقراءة، والصلاة، وأخذ ثأر الأئمة والأمة"، والتمس بركة في الوقت نفسه من السلطان

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩، ص٤٧٧-٤٧٨؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٣٤-٤٣٥.

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٣٩.

الظاهر بيبرس، إيفاد جماعة من عسكره إلى جهة الفرات لقطع الطريق على هولاكو، كما أوصى بركة السلطان بالاتصال بعز الدين سلطان سلاجقة الروم لطلب المساعدة على هولاكو[1].

والواقع أن العداء بين المماليك والتتار لم ينقطع منذ معركة عين جالوت؛ إذ ظل تتار فارس يتحينون الفرصة للثأر، ويغيرون بين الحين والآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية، وإذا كان هولاكو خان تتار فارس قد توفي، فإن خليفته كتبغا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية، وسياسته الودية تجاه الصليبيين في الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى، ولكن بيبرس وقف دائماً بالمرصاد لتتار فارس، وحال بينهم وبين ما يشتهون، كما سبق ذكرها في العلاقات سابقاً[2].

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧١؛ شافع بن علي: حسن المناقب السرية، ص٦٣؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٢٥. لمعرفة تفاصيل الصراع الذي دارت رحاه بين هولاكو وبركة، انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، ج١، ص٣٣٢-ص٣٣٦؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢٢٠؛ ابن كثير: والبداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٩.

(٢) ابن آيبك: كنز الدرر وجامع الغرر،ج٨، ص١٠٧.

والمتتبع لخط سير التتار يدرك أن مصر كانت الهدف الثاني للمغول لعدة أسباب منها:

(١) سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.

(٢) بروز مصر بعد هزيمة التتار في عين جالوت كقوة تهدد أمن التتار، فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً، وبقيت مصر.

(٣) الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الأهمية، فهي في قلب العالم القديم، وتتحكم في التجارة[١]، مما دفع المغول لغزو بلاد الشام لأنها تعد الطريق المؤدي إلى مصر، ومنها إلى ساحل شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسي، وكان يتوجب على الغزاة أن يحكموا قبضتهم على بلاد الشام بأسرها، سواء في الداخل أو على الساحل الشرقي للبحر المتوسط؛ حتى يسهل عليهم السيطرة على مصر، ومن يسيطر على بلاد الشام ومصر معاً يتمكن من السيطرة على المشرق العربي الإسلامي كله، وتفتح

---

(١) نعيم زكي عطية: الطرق التجارية الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٥٤.

أمامه أبواب المغرب العربي؛ ثم الأندلس التي تعد بوابة غرب أوروبا[١].

(٤) رغبة المغول في الهيمنة على العالم كله تستدعي منهم القضاء على دولة المماليك، وهذا لا يكون إلا بقيام تحالف ملوك أرمينيا الصغرى وأنطاكية الصليبية مع المغول، وكان التحالف عن طريق توجيه الدعوات لخاناق لإقناعهم باعتناق المسيحية، ومن ثم تحالف معهم لشن حملة صليبية مغولية، وتطويق المشرق العربي الإسلامي وتقسيمه[٢].

ثانياً: الأسباب الاقتصادية:

شاءت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن ٧هـ/١٣م مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ما عداه من طرق تجارية تربط بين الشرق والغرب[٣].

وذلك أنه لم يكد يمض على قيام دولة المماليك سنوات معدودة، حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وامتد نفوذهم إلى الشام

(١) عصام شبارو: السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م، ص٥٨.

(٢) نظير حسان سعداوي: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، منشورات مكتبة النهضة العربية، ١٩٦١م، ص١١٦.

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٨٤-٢٨٦.

وآسيا الصغرى، فضلاً عن بلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزاً لدولته، مما أدى إلى اضمحلال طرق التجارة البرية بين الصين من جهة، وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى(١).

وكانت هناك عدة طرق تربط الصين بالشرق الاوسط وأوروبا، منها الطريق البري القادم من وسط آسيا ومن الهند، والذي يسير حتى بخارى؛ حيث يتفرع فرعين: الأول إلى بحر قزوين فنهر الفولجا فبلاد البلغار، والثاني يتجه إلى البحر الأسود وموانئه؛ ثم القسطنطينية وأوروبا، وتخرج منه فروع جانبية إلى حلب وساحل البحر المتوسط، وآخر إلى بغداد وديار بكر، والثالث غير مطروق، ويعبر أرمينيا وآسيا الصغرى إلى القسطنطينية(٢).

وهناك طريق آخر يخرج بحراً من الصين إلى الهند في الخليج العربي حتى رأس الخليج العربي؛ ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة إلى بغداد؛ حيث يتفرع إلى فرعين: الأول إلى موانئ ساحل البحر المتوسط؛ ثم جنوباً إلى مصر محاذياً غزة؛ ثم عبر الصحراء إلى القاهرة، والثاني: يتجه شمالاً بغرب إلى حلب؛ ثم إلى آسيا الصغرى،

---

(١) شوقي عبد القوي عثمان حبيب: التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، المجلس الأعلى الثقافي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١١٥-١١٧.

(٢) نعيم زكي عطية: الطرق التجارية الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص١٥٤.

ليلتقي بالطرق القادمة من وسط آسيا، ويتحد معها إلى القسطنطينية ثم إلى أوروبا[1].

ومن الواضح أن هذه الطرق السابقة في القرن الثالث عشر كانت مهددة وغير آمنة بسبب غزوات المغول التي امتدت من جوف آسيا الصغرى، ولم يسلم من سيطرة المغول سوى طريق البحر الأحمر، الذي كان هدفهم، مما ساعد على انتعاش سلطنة المماليك، وهذا الطريق أصبح من أكثر الطرق التجارية أهمية بين المشرق والمغرب، ومن ثم ازدهرت موانئه المختلفة، وخاصة الطور، والسويس، فضلا عن انتعاش الطريق البري بين هذين الميناءين وبين القاهرة[2].

وبفضل هذه المزايا لطريق البحر الأحمر أصبحت مصر النافذة أو الواجهة التي تعبر من خلالها منتجات أفريقية وآسيا وسلعها، فأصبحت بمثابة القلب؛ حيث إن جل تجارة العالم تمر بها، ولم يكن دور مصر بالدور السلبي؛ إذ كانت تتحكم في الأسعار رافعة لها أو خافضة، وكانت الأموال تصب فيها صباً، كما عبرها ملوك السودان في طريقهم للحجاز، وأتتها سفارات من الدول الأوروبية، والمدن والجمهوريات الإيطالية

(١) المرجع نفسه: ص١٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر، محمد عبدالحميد خان، ط٢، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٦، ج٢، ص١٣٢؛ نعيم زكي: طرق التجارة، ص١٥٤.

طالبة عقد معاهدات وتبادل تجارات، ومزايا لرعاياها، وكان كل ذلك طمعاً في المنتجات الأفريقية والآسيوية التي كانت تحمل إلى مصر[١].

كان الاقتصاد في دولة المماليك يقوم على دعامتين أساسيتين: الدعامة الأولى: الزراعة التي ظلت الثروة الرئيسة في عهد المماليك، وكانت الأرض تنبت جميع المحاصيل المعروفة من حبوب، وبذور، وخضر، وفاكهة، وأزهار، أما الدعامة الثانية فهي: تجارة المرور، التي كانت تعبر الأراضي المملوكية ، وهي التجارة الشرقية التي كانت تخترق مصر أو الشام في طريقها إلى أوروبا، وكان كلا الطريقين في حوزة المماليك، وكانوا يأخذوا جباية على تلك التجارة ما شاؤوا من المكوس، والضرائب الباهظة، ولم تكن فائدة مصر من مرور التجارة الشرقية بأراضيها قاصرة على الضرائب الفادحة التي كان المماليك يجبونها عليها؛ بل إنها كانت تعمر الأسواق في القاهرة فتنشط حركة البيع والشراء، ويثري التجار بدورهم، مما هيأ لهم حياة العز والنعيم، ومكنهم من بناء القصور الفخمة، والمساجد العظيمة،كما ازدهرت في عهد المماليك كثيراً من الصناعات أيّما ازدهار، وبلغت درجة عظيمة من التقدم والرقي، ولقد تركزت معظم هذه الصناعات في مدينة القاهرة وأحرز الصناع مهارة تستحق الإعجاب، وساعدهم في ذلك شيوع نظام

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٢١٠؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٤، ص٦٥٦؛ القلقشندي:صبح الاعشى ، ج١٣، ص٩٦.

الطوائف، فقد كان لكل حرفة طائفة، ولكل طائفة شيخ يديرشؤون أفرادها، ويوجههم التوجيه الفني الصحيح، ويرعى مصالحهم، ومن أهم الصناعات التي ازدهرت في ذلك العصر صناعة المنسوجات، والفرش، والستور، والخيم، والسروج، وصناعة الأواني النحاسية المكتفة كالأباريق، والصحون، والطسوت، والموائد، والثريات؛ كما قامت بالقاهرة صناعة الأسلحة، وأدوات الحرب كالسيوف، والرماح، والسهام، والأقواس، والدروع، والأدوات الرياضية، والصيد، وصناعة السفن(١).

وعلى ذلك يتبين لنا أن مصر شهدت في عصر المماليك رخاء اقتصادياً مرجعه إلى موقعها القائم بين الشرق والغرب، والقلاقل والاضطرابات التي نتجت عن تحركات المغول في آسيا كل هذا حول طرق التجارة ومركزها إلى طريق البحر الأحمر الذي كانت تسيطر عليه مصر، حتى بدون هذه الاضطرابات والقلاقل فإن الطريق المار عبر البحر الأحمر إلى الإسكندرية هو أقصر الطرق إلى أوروبا والشام، والمسافة البرية فيه قصيرة، والنقل البحري أرخص كلفة من أي وسيلة أخرى للنقل، كما أن المسافة المقطوعة براً في الطرق التجارية العابرة طويلة، مما يؤدي إلى تكلفة أكبر، فضلاً عن افتراضنا بأن هناك استتباب

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ق٢، ص٤٦٥-٩٠٩؛ الذهبي: دول الإسلام،حققه بشار عواد ،دار الغرب الاسلامي،١٤٢٤هـ،ج١٢ ص٣٩٦؛ ابن تغري بردي : =النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٤٢.

للأمن بهذه الطرق، فإنها لا تسطيع منافسة طريق البحر الأحمر، وهكذا كان سبب غزو المغول للبلاد المصرية[1].

ثالثاً: الأسباب الاجتماعية:

كانت حياة المغول غير مستقرة، تعتمد على التنقل والترحال، وتنقسم قبائلهم من حيث المعيشة إلى: قبائل رعاة بدو يتنقلون طلباً للمرعى، وإلى قبائل صيادين يصيدون الأسماك والحيوانات من الغابات، ومن الملاحظ أن القبائل التي عاشت في الغابات تبدو أكثر بدائية وتوحشاً، وقد يرجع ذلك إلى طبيعة حياتهم وصيدهم للحيوانات، مما جعلهم بعيدين كل البعد عن حياة التمدن وأقرب إلى عيشة الحيوانات، فكانوا يأكلون كل ما يقع تحت أيديهم، سواء كان حيواناً أو طيراً، فيقومون بتشريح لحمه إلى شرائح طويلة ودقيقة، أما العظام فكانوا يقرضونها بأسنانهم، وما تبقى منها أعطوه لكلابهم[2].

وكان شراب المغول المفضل لبن الخيل؛ حيث يشربونه بكميات كبيرة، وإذا ما تعذر عليهم شرب حليب الفرس، عمدوا إلى خيلهم أو

---

(١) سعد الغامدي: المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية، الرياض، (د. م)، ١٤١٠هـ، ص٤٥.

(٢) سعد الغامدي: المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية، ص٥٣.

دوابهم فيقطعون بسكينة جزء من أحد شرايينها ليمتصون ما يكفيهم من الدم المتدفق منها، ثم يسدونه بأي شيء[1].

أما ملابسهم فكانت بسيطة مصنوعة من جلود الحيوانات، ذات الفراء، فيجعل فرائها من الخارج في وقت الصيف بسبب الحرارة الشديدة، وإذا حلَّ الشتاء جعل الفراء من الداخل كي تقيه من البرد، ولا يختلف لبس الرجل عن المرأة، وتظل ثيابهم على أجسادهم إلى أن تبلى، فلا يعرف الماء طريقه إلى تلك الثياب، ولا الأجساد[2].

لقد عرفنا أن حياة المغول كانت قائمة على الترحال من مكان لآخر؛ لذلك أقاموا خيامهم على عربات، كي يسهل نقلها معهم في ترحالهم[3].

وقد وصف ابن الأثير حال التتار المغول بقوله: "إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام، والبقر، والخيل، وغير ذلك من الدواب، يأكلون لحومها لا غير،وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من الخارج، ولا يحرمون شيئاً،

---

(١) المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) الفقي، عصام الدين عبدالرؤوف، وجمال الدين، ومحمد سعيد: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، (المشرق الإسلامي بعد العباسيين)، ج٤، القاهرة، شركة سفير للطبع والنشر، (د. ت)، ص١٥.

(٣) الفقي، عصام الدين عبدالرؤوف: موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي: ج٤،ص١٥.

فإنهم يأكلون جميع الدواب، حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها واحد من الرجال، فإذا ولدت فإن الولد لا يعرف أباه(١).

كما وصفهم القلقشندي فقال: "إنهم لا يرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس"(٢).

ويصف الذهبي حال التتار وقائدهم جنكيز خان فيقول: "خرب البلاد وأفنى العباد، واستولى على الممالك، وليس للتتار ذكر قبله، إنما كانت طوائف المغول بادية بأراضي الصين، فقدموه عليهم، فهزم جيوش الخطاء واستولى على ممالكهم، ثم تركستان وإقليم ما وراء النهر؛ ثم إقليم خراسان وبلاد الجبل وغير ذلك، وأذعنت بطاعته جميع التتار وأطاعوه في كل شيء، ولم يكن يتقيد بدين الإسلام ولا بغيره، وقتل المسلم عنده أهون من قتل البرغوث، وله شجاعة مفرطة، وعقل وافر، ودهاء ومكر"(٣).

---

(١)ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٣٥١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ، ج٤، ص٣١٥.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: خيري سعد ، المكتبة الوقفية، القاهرة،(د. ت)، ج١٦،ص٢١٧.

كان ذلك وصفاً موجزاً لشعب عرف بالهمجية والتوحش، والبعد عن مقومات الحضارة، ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم، وتقلبات مناخهم وبعدهم عن العالم وحضارته[١].

رابعاً: الأسباب الدينية:

أما من الناحية المذهبية فالملاحظ أن المغول مالوا منذ اللحظة الأولى لغزوهم للشرق الأدنى إلى المسيحية على المذهب النسطوري[٢]، ولعل وصية منكو خان لأخيه هولاكو التي نصت على استشارة هولاكو لزوجته طقز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك، وقد أدى وجودها في ركاب زوجها هولاكو إلى التفاف المسيحيين الشرقيين حول المغول، إذ المعروف أن النساطرة ازداد عددهم في الجيش المغولي، ووصلوا إلى حد قيادة الجيوش المغولية، "فكيتوبوقا" كان من عنصر النايمان النساطرة، وكان من الطبيعي أن يتآخى هؤلاء

(١) العريني،السيد الباز: المغول ، دار النهضة العربية،بيروت، ١٩٨١م، ص٢٥، ص٢٤٨.

(٢) النساطرة: نسبة إلى نسطور وكان بطريركاً بالقسطنطينية. ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والاهواء والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ج١، ص٤٩.

النساطرة مع الجماعات الأرمينية واليعاقبة[١] وغيرهم التي تكاثر عددهم في كبرى مدن الشام[٢].

وقد أدى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في اقتحام مدن الشام، فهولاكو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان يصحبه ملك أرمينية هيثوم الأول وصهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية[٣].

وهنا يصح أن نؤكد أن غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً صليبياً، ولعل خير دليل على ذلك ما أكدته بعض المصادر من أن الخطة الخاصة بغزو بلاد الشام تقررت في اجتماع هام انعقد بين هولاكو وحليفه الأرمني هيثوم الأول، وأن هولاكو طلب من حليفه الأرمني أن يلتقي به على رأس القوات الأرمينية عند الرها، حتى يذهب معه إلى بيت المقدس ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين[٤].

---

(١) اليعاقبة: نسبة إلى يعقوب البردعي، وكان راهباً بالقسطنطينية. ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والاهواءوالنحل ،بيروت،٢٠٠٧م، ج١، ص٤٩.

(٢) العريني: المغول، ص٢٤٨.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية،القاهرة،١٩٦٣م،ج٢، ص١٠٧٠-١٠٧١؛ العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٩-٣٠؛ العريني: المغول، ص٢٤٢.

(٤) العريني: المغول، ص٢٤٢.

هذا بالإضافة إلى ما ذكر من أن هولاكو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم علية "جاثليق" الأرمني ومنحه البركات، ولما كان "هيثوم الأول" ملك أرمينية الصغرى في اتصاله مع المغول يتحدث باسمه واسم صهره "بوهيمند السادس" أمير أنطاكية الصليبي فإن هذه الحملة قد اتخذت صفة حملة صليبية أرمينية مغولية(١).

واخيراً، يمكن القول: بأن هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية، الذي أثمر بالسيطرة على بلاد الشام وتحطيم استحكاماتها، ومن ثم التطاول على المسلمين بها، والاعتداء على مقدساتهم، كان أحد العوامل التي دفعت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر، واستنفار كامل قواهم، ومن ثم إعلان حركة الجهاد الإسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم.

المبحث الثاني: الأسباب المباشرة لمعركة حمص الكبرى:

أولاً: ثورة سنقر الأشقر:

لم يلبث السلطان قلاوون أن تعرض في أوائل حكمه إلى العقبات نفسها التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك، خرج عليه بعض الأمراء الصالحية الذين اعتقدوا أن لهم أمجاد حربية لا تقل عن أمجاد قلاوون، وأن لهم مثله الحق في السلطنة، كما غضب الأمراء الظاهرية

---

(١) العريني: المغول ، ص٢٤٢.

لعزل بركة خان وسلامش ابني أستاذهم، ومن بين هؤلاء الثائرين الأمير سنقر الأشقر نائب دمشق[1].

وذلك أن الأمير سنقر الأشقر لم يرض عن التغيير الذي حصل في رأس السلطة، ورفض الاعتراف بالمنصور قلاوون سلطاناً، وامتنع عن مبايعته، ويبدو أنه كان يطمع بتولي السلطة، بدليل أنه دعا أهل دمشق إلى الخروج على طاعة قلاوون، وأعلن نفسة سلطاناً في شهر ذي العقدة عام ٦٧٨هـ/شهر نيسان عام ١٢٨٠م[2].

حيث أوهمهم أن السلطان قد قتل وهو يشرب القمز، واستحلفهم لنفسه فحلفوا، وركب بشعار السلطنة، وتسمى بالملك الكامل[3].

ولما بلغ الملك منصور سيف الدين قلاوون صاحب الديار المصرية عن الملك المسعود نجم الدين خضر بن الملك الظاهر صاحب الكرك من استنفار الناس، جمع العساكر وجعل قائدهم الأمير عز الدين الأفرم إلى الكرك، على سبيل الإرهاب، فلما بلغ الملك الكامل شمس الدين سنقر الأشقر صاحب دمشق أنه قد خرج من الديار المصرية ظن أنه يقصده، فكتب اليه ينهاه عن التقدم[4]،

---

(١) بيبرس الدواداري المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة المملوكية، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م ص٩٢.

(٢) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ، ص١٧٨-١٧٩.

(٣) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ، ص٦٣.

(٤) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص١٨١-١٨٢.

ويقول: "إنني مهدت الشام، وفتحت القلاع، وبذلت في طاعة السلطان ما لم يبذله أحد، وكان شرطي معه أن أكون حاكماً من الفرات إلى العريش، فاستناب آقوش الشمسي بحلب، وعلاء الدين الكبكي بصفد، وسيف الدين الطباخي بحصن الأكراد، وآخر الحال تسير إلي من يمسكني، فلا تقطع العقبة، ولا تدن من البلاد، وإن غررت فقد عبينا لك الضيافة"، فأرسل الأمير عز الدين الأفرم كتابه هذا إلى السلطان لمطالعته، فكتب السلطان إلى شمس الدين سنقر الأشقر من جهته ومن جهته خشداشية[(١)] يقبحون عليه هذا الفعل، ويعذلونه في الرجوع، ولكن لم يسمع منهم سنقر الأشقر، أما الأمير عز الدين الأفرم فإنه عند ورود كتاب سنقر الأشقر إليه رجع إلى غزة؛ اذ لم يكن معه جمع يقابل عسكر الشام، فلما وصلها وافى الأمير بدر الدين الأيدمري عائداً من الشوبك بعد أخذها بمن معه من العسكر، فاجتمع كلاهما على غزة، أما سنقر الأشقر فقد جمع العساكر من حلب، وحماة، وحمص، واستدعى الكبكي من صفد، والعربان من البلاد، وجهز من عسكر الشام جماعة، وقدم عليهم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر المعزي، فساروا إلى غزة، والتقوا

---

(١) خشداشية: جمع خشداشي أي: زميل في الخدمة، والخشداشية في اصطلاح عصر المماليك معناها: الأمراء الذين نشأوا وعاشوا عند سيد واحد وأصبحوا يكونون رابطة الزمالة القديمة. انظر:ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠، حاشية١.

مع الجيش الشامي، فاستظهر العسكر المصري عليهم، وأسروا منهم جماعة فيهم من الأعيان[١].

ووصل الأمراء المأسورون إلى أبواب السلطانية بقلعة الجبل، فعفى عنهم السلطان وأحسن إليهم، ولم يؤاخذهم، وأطلقهم، وجدد مناشيرهم، وأعادهم إلى العسكر المنصور، فأقاموا بين العساكر المنصورة في الخدمة المنصورية[٢].

ثانياً: كسر شوكة شمس الدين الأشقر وهزيمته:

لما وصل خبر كسر العسكر الدمشقي إلى صاحبها الملك الكامل شمس الدين سنقر الأشقر أخذ في الاهتمام وجمع العساكر، وكتب إلى الأمراء الذين بغزة من جهة الملك المنصور يعدهم ويستميلهم، وعين لكل منهم قلعة، ووصل إلى الملك الكامل الأمير شهاب الدين أحمد بن حجي ملك العرب بالبلاد القبلية، ووصل إليه أيضاً الأمير شرف الدين بن مهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية والشمالية، ونجدة من حلب وحماة، ورجال كثيرة من جبال بعلبك، واستخدم الملك الكامل الرجال، وأنفق فيهم الأموال، وجمع خلقاً كثيراً، ثم وردت الأخبار إلى دمشق أن الملك

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٦٥.

المنصور جهز جيشاً من مصر[1] بقيادة علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بدر الدين بكتاش الفخري لقتال سنقر الأشقر[2].

فلما قرب الجيش من دمشق خرج سنقر الأشقر لقتاله في اثنى عشر ألفا[3].

لم يصمد جيش سنقر الأشقر أمام جيش قلاوون، وحلت به الهزيمة، واضطر أفراده إلى الانسحاب إلى مدينة الرملة، ويبدو أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد سنقر الأشقر، فاستمال إلى جانبه بعض أمراء بلاد الشام، وحصل على نجدات سريعة من حلب وحماة وبعلبك، كما عاونه بعض أمراء العربان، وخرج بهم من دمشق، والتقى العسكران في الجسورة[4] استعداداً لملاقاة الجيش المصري، واختلف المؤرخون في يوم التقائهم، قيل: في خامس عشر، وقيل يوم الاثنين سابع عشر، وقيل يوم الأربعاء تاسع عشر، وحضر وقت طلوع الشمس، وتقاتلا أشد قتال، وثبت الملك الكامل وقاتل قتالاً شديداً واستمر المصاف إلى الرابعة من النهار، ولم يقتل من الفريقين إلا نفر يسير، وخرج أكثر عسكر دمشق

(١) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ص١٨٢.

(٢) ابن الفوطي: كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد وعماد عبدالسلام رؤوف، بغداد، ١٣٥١هـ، ص٤٤٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٩١.

(٤) الجسور: موضع بظاهر دمشق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٥، حاشية٣.

على الملك الكامل، فمنهم من انحاز إلى عسكر مصر، ومنهم من انهزم، أما عسكر حلب وحماة فعند اللقاء انهزموا، وساروا إلى بلادهم، وتخاذل بقية عسكر الشام، وحضر أكثر أمراء العسكر الشامي إلى العسكر المصري، وحمل الأمير علم الدين الحلبي على الملك الكامل شمس الدين سنقر وانهزم لوقته[١].

فتوجه طالبا طريق الرحبة ومعه شرف الدين عيسى بن مهنا، وكانت هذه الهزيمة عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م[٢].

ثالثاً: التجاء سنقر الأشقر إلى صهيون وتحصنه بها:

لما انهزم شمس الدين سنقر الأشقر توجه إلى الرحبة[٣]، وتفرق عنه أكثر من كان معه وتركوه، وتراجع أكثرهم إلى السلطان، ورأى سنقر الأشقر نفسه وحيداً، فطالب النائب الموفق خضر الرحبي بالرحبة بتسليمها إليه فأبى وامتنع، فتوجه سنقر الأشقر إلى صهيون[٤] وكتب إلى

---

(١) محي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦٦.

(٢) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص١٨٣.

(٣) الرحبة: بينها وبين دمشق ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرسخ، وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل من قرقيسيا. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٤.

(٤) صهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص، لكنه ليس بمشرف على البحر، وهي قلعة حصينة مكينة في طرف جبل، خنادقها أودية واسعة

كتبغا بن هولاكو ملك التتار يعرفه أن كلمة الإسلام قد تفرقت، ويحثه على المسير إلى البلاد الشامية ليمتلكها، ويعده المناصرة عليها والمساعدة إذا جاء إليها، وكتب معه شرف الدين عيسى بن مهنا، لكن الملك المنصور لم ييأس من استمالة سنقر الأشقر، فأرسل إليه يستميله ويتلطف به ليعود، فأبى إلا الامتداد في جهالته، والاشتداد في ميدان ضلالته[١].

رابعاً: غارات المغول على بلاد الشام وتحالفهم مع الصليبيين:

أشرنا أن شمس الدين سنقر الأشقر والأمير شرف الدين عيسى بن مهنا[٢] كتبا إلى الملك كتبغا بن هولاكو ملك التتار ما بين عساكر المسلمين من اختلاف الكلمة، فلما وصل إليه ما كتبا به إليه جهز العساكر وخرجوا قاصدين البلاد الشامية، وافترقوا على ثلاث فرق: فرقة سارت من جهة الروم ومقدمهم صمغار، وتنجي، وطرنجي، وفرقة من جهة الشرق ومقدمهم بيدو ابن طرغاي بن هولاكو وبصحبته

هائلة عميقة، ليس لها خندق محفور إلا من جهة واحد'، ولها ثلاثة أسوار. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٣٦.

(١) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) شرف الدين موسى بن عساف بن مهنا بن عيسى، كان والده عساف بن مهنا من أكابر أسرة آل فضل، مات الأمير موسى في شوال سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠٨؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص٨٦٢.

صاحب ماردين[١] "المظفر قرة أرسلان"، والفرقة الثالثة فيها معظم الجيش المغولي صحبة منكوتمر بن هولاكو، ووردت الأخبار بذلك إلى الشام، فخرج من كان في دمشق من العساكر المصرية عسكر ومقدمة الأمير بدر الدين بكتاش النجمي[٢]، فلحق بهم واجتمع الجميع على حماة، وأرسلوا كشافه إلى التتار، وأرسلوا إلى شمس الدين سنقر الأشقر: "قد دهمنا هذا العدو وما سببه إلا الخلاف فيما بيننا، وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط والمصلحة أننا نجمع على دفعة"، فنزل عسكر شمس الدين سنقر الأشقر من صهيون والحاج ازدمر من شيزر[٣]، وخيمت كل طائفة تحت قلعتها ولم يجتمعوا بالمصريين واجتمعوا على اتفاق الكلمة ودفع العدو، ووصل إلى دمشق وبعلبك خلق كثير من حلب وبلادها وما والاها، ومن حمص، وحماة، والبلاد الشمالية، جافلين من التتار، ولم يتخلف إلا من عجز عن السفر، وأخليت حلب من العساكر، والتحقوا بحماة، وعزم كثير من أهل دمشق والبلاد الشامية على التوجه

(١) صاحب ماردين: الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن الملك أرسلان بن البي بن تمرتاش التركماني الأرتقي، كان يلقب بالملك السعيد، قتل في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م؛ ثم تولى من بعده ابنه. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٤٦.

(٢) الأمير بدر الدين بكتاش بن عبدالله الفخري الصالحي النجمي، أمير سلاح، أصله من المماليك. النويري: نهاية الارب في فنون الادب ، ج٣٢، ص٥٢.

(٣) شيزر: بتقديم الزاي على الراء وفتح أوله، قلعة تشمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٨٣.

إلى الديار المصرية، واضطرب الناس اضطراباً شديداً، ووصلت طوائف كثيرة من عساكر التتار إلى حلب بعد أن ملكوا عين تاب[1]، وبغراس[2]، والدربساك[3]، فوجدوا حلب خالية، وقد ذهب العساكر وأهلها منها، فقتلوا من كان تأخر بها ظاهراً، ونهبوا، وسَبَوا، وأحرقوا الجامع والمدارس ودار السلطنة، ودور الأمراء والأكابر، وأفسدوا فساداً كثيراً، وأقام التتار بحلب يومين[4].

توجه السلطان قلاوون وبصحبته العساكر الإسلامية قاصداً الشام لحماية الإسلام بعد أن فوض ولاية العهد لولده الأكبر صالح[5]، ووصل غزة وخيم بها، وكان التتار قد تقدموا إلى حلب فوجدوها خالية من

(١) عينتاب: قلعة حصينة، ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك ودلوك رستاقها، وهي الآن من أعمال حلب. معجم البلدان: ياقوت الحموي، ج٤، ص١٧٦.

(٢) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام ،بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ ،على يمين القاصد الى انطاكية من حلب ،في البلاد المطلة على طرسوس .البغدادي:مراصد الاطلاع:ج١،ص٢٠٩.

(٣) الدربساك: المقصود به ما بين طرسوس وبلاد الروم، وقيل: هو حصن قرب أنطاكية من أعمال حلب. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص٦١٧-٦١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٤٨٨.

(٤) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٦.

(٥) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص١٨٥، ١٨٩.

العسكر، وقد انجفل أهلها منها، فأحرقوا الجوامع والمساجد والدور والمنازل، وعاثوا وأفسدوا[1].

رحل التتار من حلب راجعين إلى بلادهم بعد أن تقدمتهم الغنائم التي كسبوها، ونقلوا من الغلات شيئاً كثيراً إلى أماكنهم، وكان سبب رجوعهم من حلب ما بلغهم من اتفاق الكلمة بين المسلمين على دفعهم، واهتمام الملك المنصور صاحب حلب وخروجه بالعساكر من الديار المصرية[2].

ويمكننا أيضاً أن نضيف شيئاً آخر وهو أنه من غير المستبعد أن يكون المغول عند دخولهم حلب خافوا على ممتلكاتهم في إقليم فارس من تهديد مغول القبيلة الذهبية (القبجاق) حلفاء سلاطين دولة المماليك المسلمين، فاضطروا للعودة بهذه السرعة تلافياً لما قد يحدث لهم من تلك الجهة من أخطار نظير غيابهم في بلاد الشام[3].

خامساً: صلح سنقر الأشقر:

(١) المصدر السابق، ص١٨٩.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧.

(٣) عبدالله سعيد الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، أم القرى، ١٤٠٧هـ، ص٢٣٧.

لم يترك السلطان قلاوون الأمير سنقر الأشقر وشأنه، وقرر القضاء عليه نهائيا فأرسل إليه فرقة عسكرية بقيادة عز الدين أيبك الأفرم[١] لمحاربته. ولما لم يكن باستطاعته مواجهة الموقف لافتقاره إلى القوة العسكرية، مال إلى الصلح وشرط شروطا منها:

(١) أن يلقب بلقب الملك.

(٢) أن يحصل على أفامية[٢]، وكفر طاب[٣]، وأنطاكية، وصهيون، واللاذقية[٤] مقابل نزوله من شيزر، التي كان قد استولى عليها.

(٣) أن يعيِّنه أميراً على ستمائة فارس باستثناء أتباعه.

وافق قلاوون على طلبه، وكتب له تقليداً بولاية هذه البلاد[٥]، وذلك في الستة الأواسط من شهر صفر من سنة ٦٨٠ه/١٢٨١م[٦].

---

(١) عز الدين آيبك الأفرم الصالحي أمير جندار. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، القاهرة، ١٢٨٤هـ،ج٥، ص٤٠٨.

(٢) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام، وكوره من كور حمص، يسميها بعضهم فامية بغير الهمزه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٠٤.

(٣) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب، في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٠.

(٤) اللاذقية: تشرف على البحر المتوسط. البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٧م، ج١، ص١٥٨-٣٦١.

(٥) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة ، ص٩٤؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢١-٢٢.

(٦) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٩١.

سادساً: موقف قلاوون من أعدائه:

كان الفرنج الذين بحصن المرقب[١] لما بلغهم هجوم التتار على البلاد وانجفال العسكر من حلب طمعوا وعاثوا في البلاد فساداً، وتطرقوا إلى أذية المسلمين بأطراف تلك البلاد، فأرسل الأمير سيف الدين المنصوري نائب السلطنة بحصن الأكراد[٢] وما معه يستأذن السلطان في غزوهم لقرب المرقب إليه واستطالته عليه، وهون على السلطان أمر من به من الخيالة وذكر له قلة من فيه من الرجال، فأذن له في ذلك، فسار ومعه جيش الحصون وأمراء التركمان ورجاله، ولكن كان الحصن عالي المرام لا تصله من أسفله سهام الحشود، فلما رأى الأمير سيف الدين اضطرابهم استشار بعض من عنده من الأمراء في التأخير شيئاً، والناس لا يعلمون أن ذلك التأخير برأي وتدبير، فظنوها الهزيمة، فولَّوا الأدبار، فانهزم المسلمون وجرح منهم جماعة، وبلغ السلطان ذلك فأنكره وأكبره، وأزمع سفره ليتدارك هذه الأحوال، وينظر في المصالح التي لا يسمح فيها الإهمال[٣].

---

(١) المرقب: من أَجَل حصون الساحل الشامي، يقع على قمة جبل، بالقرب من مدينة بانياس في الساحل السوري. محمد مؤنس عوض: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠٠٤م، ص٨٩.

(٢) حصن الأكراد: هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٥٢.

(٣) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة ، ١٨٩-١٩٠.

ومهما يكن من أمر فإن ما قام به المغول من مهاجمة للأجزاء الشمالية من بلاد الشام ودخولهم مدينة حلب قد نبه السلطان المنصور قلاوون إلى خطرهم على ذلك الجزء من مملكته، وهنا رأى قبل الاشتباك معهم أن يسير على نفس النهج الذي نهجه سلفاه قطز وبيبرس من قبل، وهو مهادنة الصليبيين على ساحل الشام؛ لضمان عدم تدخلهم في الصراع، وكذلك للحفاظ على جيشه وقواته في مكان واحد، فلا يقسمها في جهتين متباعدتين، فاستغل وصول رسل الصليبيين إليه بمنزلة الروحاء[1] يسألونه استمرار الهدنة التي كانت معقودة بينهم وبين السلطان بيبرس والزيادة عليها، فوافق على ذلك، وتقررت الهدنة بين الملك المنصور قلاوون وولده الملك الصالح، وبين مقدم الإسبتارية وجميع الإخوة الإسبتارية بعكا لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم السبت العاشر من المحرم سنة ٦٨٠هـ/أول مايو ١٢٨١م[2].

تضمنت بنود هدنة عكا معالجة المسائل الخلافية الرئيسية بين المماليك وبيت المقدس والمملكة الصليبية الثانية في عكا، فاحتوت بنوداً

---

(١) منزلة الروحاء: مقابل عكا، وسميت بالروحاء لأنه مكان كثير المياه والأعشاب، بدر الدين العييني: عقد الجيان في تاريخ أهل الزمان ، ص٧٠.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٨٢-٨٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات،تحقيق قسطنطين رزيق ،ونجلاء عز الدين وبيروت،١٩٣٩م. م٧، ص٢٠٤-٢٠٦.

نصت صراحة على التزام كل من الطرفين باحترام أمن بلاد الطرف الآخر وسلامتها، وتنظيم إدارة المناصفات[1]، وضمان حرية التجارة، وانتقال الأشخاص، وضبط الممنوعات، واستيفاء الرسوم والضرائب المفروضة على السلع والأسفار[2].

كما توصل أيضاً إلى مهادنة بوهيمند السابع ملك طرابلس لمدة عشر سنين أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م[3]، وذلك على بلاد الملك المنصور، والملك الصالح ولده قريبها وبعيدها، وسهلها وجبلها، غورها ونجدها، قديمها ومستجدها، وما هو مجاور لطرابلس، ومجاور لها من المملكة

---

(١) المناصفات: فرضت الحروب الصليبية نوعاً من العلاقات بين العالم الإسلامي والغربي، ففي أعقاب الغزو الصليبي لبلاد الشام نشأت كثير من المشكلات السياسية والاقتصادية الخاصة بالمناطق المتنازع عليها، وفيها مناطق الحدود، اذ كان من الضروري قيام تنظيم جديد يكفل حل تلك المشكلات، ومصطلح "نظام بلاد المناصفات" مقسم بين المسلمين والفرنج، لا ينفرد أحد منهم بشيء إلا باتفاق الجهتين. القلقشندي، صبح الاعشى ، ج ٤، ص٤٨٥.

(٢) أحمد حطيط: المدلول التاريخي لنصوص الهدن المعقودة بين المماليك والفرنجة، مجلة التاريخ العربي، مقالة منشورة بتاريخ ربيع ١٩٩٩، العدد١٠، على الرابط:

www. attarikh. alarabh. ma/menu. html//http;

(٣) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص٢٩١.

البعلبكية[1] وجبالها، وقراها الرحلية والجبلية، وجبال فنلندا[2]والعقبيين، وما هو من حقوق ذلك، وعلى الفتوحات المستجدة وهي حصن الأكراد، وأنليس، والقليعات[3]، وصافيتا[4]

وميعار[5]، وأطليعا، وحصن عكار[6] ومرقبة ومدينتها وبلادها ومناصفاتها، وهي بلاد الملكية، وجميع بلاد هذه الجهات التي ذكرناها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الاسبتار[7] وبلده ومدينته، وما هو محسوب منها ومعروف بها من حصون وقرى وبلاد

---

(١) المملكة البعلبكية: هي بعلبك، وهي مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة، وآثار قديمة، وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وقيل: اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣.

(٢) جبال مفردها جبل وهي المكان العالي الشامخ، وكل ما ارتفع عن الأرض وعظم واستطال، والفينيين: قبيلة من فنلندا.رنسيمان:تاريخ الحروب الصليبية،ج٣،ص٣٠١.

(٣) القليعات: هي قرية لبنانية من قرى قضاء عكار في محافظة الشمال. انظر: البلاذري:فتوح البلدان،ج٢،ص٤٠١.

(٤) صافيتا: هي قلعة شمالي طرابلس الشام .القلقشندي:صبح الاعشى،ج٤،ص٢٠٧.

(٥) ميعار: قرية تتبع لمنطقة طرطوس في محافظة طرطوس.القلقشندي:صبح الاعشى،ج٤،ص٣٠١.

(٦) حصن عكار: الحصن يعرف بابن عكار، وكان بيد المسلمين، فلما ملك الفرنج طرابلس وغيرها ترددت الرسائل بينهم وبين طغتكين وهو بحمص، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج ثلث بلاد البقاع، وتسليم حصن المنيطرة وحصن عكار، وألا يتعرضوا إلى البلاد بغارة. انظر: القلقشندي:صبح الاعشى،ج٤،ص٦١ .

(٧) بيت الاسبتار: هم طائفة من الصليبيين بحصن الأكراد، والمرقب، وعكا. صبح الأعشى: القلقشندي، ج١٤، ص٣٣.

الست وبلاطنس[١] وبلادها، وجبلية، واللاذقية، وأنطاكيا، والسويدية، وحصن بغراس، وحصن ديركوش، وصهيون، وبرزية، وحصون الدعوة، وغير ذلك من سائر الممالك الإسلامية، وما سيفتحه الله تعالى على يد الملك المنصور، ويد ولده، وعلى الموانئ والسواحل، والأبراج، وغير ذلك، وعلى بلاد الإبرنس، وعلى طرابلس، وما هو داخل فيها، وأنفة البترون، وجبيل، وعرقا وبلادها المعنية في الهدنة وعدتها إحدى وخمسون ناحية، وما هو للخيالة والكنائس وعدتها إحدى وعشرون بلداً، وما هو للفارس "روجار" من قبلي طرابلس يكون مناصفة، وعلى أن يستقر برج اللاذقية، وميناؤها في استخراج الحقوق والجبايات والغلات وغيرها مناصفة، ويستقر مقامهم باللاذقية على حكم شروط الهدنة الظاهرية الركنية، وعلى أن يكون من غلمان السلطنة لحفظ الحقوق ستة عشر نفراً، وهم المشد، والشاهد، والكاتب، وثلاث غلمان لهم، وعشر رحالة في خدمة المشد، ويكون لهم في الجسر بيوت يسكنوها من دون أن يحصل منهم أذية لرعية الإبرنس، وإنما يمنعون ما يجب منعه من الممنوعات، ولا يمنعون ما يكون من عرقا وبلادها من الغلات الصيفية والشتوية وغيرها، لا يعارضهم المشد فيه، وما عدا ذلك مما يعبر من بلاد السلطان يؤخذ عليه حقوق، ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للإبرنس، ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها، وعلى أن الإبرنس لا

---

(١) بلانطس أو بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب. ابن عبدالظاهر:الروض الزاهر،ص٣٤٨.

يستجد خارج مما وقعت عليه بناء يدفع ولا يمنع، وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني من الجهتين أن تكون كل طائفة آمنة من الأخرى، ولا ينقص ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره، وأن لا يحسن لأحد من أعداء السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط، ولا مراسلة، ولا مكاتبة، ولا مشافهة، وتقررت الحالة على ذلك وعادت الرسل[1].

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور ، ص٢١٠-٢١١.

الفصـل الثالث:

معركة حمص الكبرى ... وسير أحداثها

المبحث الأول: جهود قلاوون في توحيد الصف الإسلامي

المبحث الثاني: تحالف المغول مع الأرمن ونتائجه

المبحث الثالث: جغرافية حمص

المبحث الرابع: الاشتباك بين الجانبين ونتائجه

المبحث الخامس: تحركات الجيش الإسلامي

المبحث السادس: حالة كل من الجيش المملوكي والمغولي

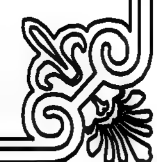
المبحث السابع: الاشتباك مع المغول

المبحث الثامن: أحوال دمشق ومصر أثناء موقعة حمص

المبحث التاسع: موقف (كتبغا خان) من الهزيمة

المبحث العاشر: ما قيل شعراً عن معركة حمص





الفصل الثالث:

معركة حمص الكبرى، وسير أحداثها

المبحث الأول: جهود قلاوون في توحيد الصف الإسلامي

أولاً: تفويض السلطة وولاية العهد للملك الصالح:

لم يؤمن المماليك مطلقاً بمبدأ وراثة العرش، وإنما آمنوا إيماناً راسخاً بفكرة الخشداشية، أي الزمالة، فهم جميعاً زملاء لا فضل لمملوك على آخر، إلا بما تمتع به من مواهب وقوة وصفات خاصة، وهذه الفكرة أدت بالمماليك إلى بغض مبدأ وراثة العرش؛ لأنهم ما داموا جميعاً سواسية وزملاء، فليس هناك ما يدعو لأن يحتكر أحدهم الملك في ذريته، فالملك لأقوى الأمراء بعد وفاة السلطان الحاكم أو مقتله، وإذا وجدت حالات نجح فيها بعض سلاطين المماليك في تأسيس بيوت احتفظت بالحكم مدة طويلة كما حدث في بيت قلاوون فإن هذه الحالات كانت خروجا على القاعدة وذلك المبدأ[١].

تأسيساً على ما سبق يعتبر بيت قلاوون مثالاً فريداً في عصر المماليك، لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (٦٧٨-٧٨٤هـ/١٢٧٩-١٣٨٢م)، ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك في حقبة معينة بمبدأ وراثة الملك، وإنما هي مجرد ظروف

---

(١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص١٣٤-١٣٥.

أحاطت بذلك البيت وبعض أفراده، فضلاً عن أحوال البلاد عندئذ، والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينقادوا لبيت قلاوون طول ذلك القرن، وإنما قامت محاولات لعزل بعض سلاطين بني قلاوون من الحكم، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلاً في تلك الأثناء، ولكن البيت القلاووني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل، والواقع أن السلطان قلاوون نفسه لم يكن يتصور أن السلطنة ستظل في أعقابه طول هذه المدة؛ لأنه كان مملوكا قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ وراثة العرش عندما عزل سلامش ابن الظاهر بيبرس من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلا منه[١].

كانت غريزة الأبوة أقوى من أن يتعظ قلاوون بما حدث على يديه لأبناء السلطان الظاهر بيبرس، ففي يوم الاثنين ١٧ جمادي الآخرة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، فوض السلطان ولاية عهده وكفالة السلطنة لولده الأكبر علاء الدين علي ونعته بالملك الصالح، وركب الملك الصالح بأهبة الملك وشعار السلطنة وشق القاهرة وخوطب بالسلطان وولي العهد، وخطب له على سائر المنابر بعهد والده وكتب تقليده[٢].

وقد قضى الملك ثماني سنوات سلطاناً في حياة أبيه، ويتضح ذلك من نسخة تذكرة سلطانية كتب بها عن السلطان الملك الصالح علي بن

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٩٩-١٠١.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧.

قلاوون، وكتبها أبو عبدالله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الكاتب للأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة في ذي الحجة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد جاء فيها: "يرتب المجردون حول المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة، وكذلك جهة القرافة وخلف القلعة، وجهة البحر، وخارج الحسينية، ولا يهمل ذلك ليلة واحدة، ولا يفارق المجردون مراكزهم إلا عند السفور وتكامل الضوء"[١].

وقد شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م أي في حياة أبيه، واشتد حزن السلطان عليه، وقد ضاعف من هذا الحزن أن الابن الثاني وهو الخليل كان مكروها من الأمراء، لما عرف عنه من قوة وعدم تمسك بقواعد الدين؛ بل اتهمه البعض بأنه هو الذي دس السم لأخيه علاء الدين علي[٢].

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ، ،ج٧، ص١٩٦.

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص ٤٧٣-٤٧٤.

ثانياً:تقرير الهدنة مع الصليبيين:

إن مصطلح استراحة المقاتل يتبادر إلى الذهن حينما نبدأ بهذا الموضوع، فأي نظام عسكري في العالم قديماً أو حديثاً، يحتاج إلى ترتيب أوراقه ومراجعة عملياته وقواته، والأمان في الإسلام نوعان: مؤقت ودائم، والأمان المؤقت قسمان: خاص وعام، فالأمان المؤقت الخاص يمكن أن يقوم به جندي مسلم إذا استسلم له أحد جنود العدو، وطلب منه الأمان، أو إذا استسلمت جماعة من جنود العدو إلى جماعة من جنود المسلمين، ففي هاتين الحالتين يجوز للجندي المسلم أو قائد جماعة المسلمين أن يمنحوا الأمان إذا رأوا مصلحة المسلمين، كالحصول على أسلحة وأسرى أو الحفاظ على عتاد المسلمين وأرواحهم، أما الأمان المؤقت العام فلا يبذله إلا الإمام أو نائبه، ويكون لكل الجيش، وهو جائز، ما دام الإمام قد رأى فيه مصلحة المسلمين، وهو الذي يسمي الهدنة، كتلك الهدنة التي وافق عليها الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية[١].

وقد كانت معاهدات الصلح بين الصليبيين والمماليك تشمل الحدود الجغرافية والمدة الزمنية والأملاك الخاصة، وأملاك المناصفات، وبناء

---

(١) شلبي، أحمد: الجهاد والنظم العسكرية، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٢٤.

التحصينات، والمياه، والمزارع، والضرائب، والرسوم، وحرية الملاحة، ومحاربة القراصنة وحرية تنقل الأفراد، وحرية التجارة بين الطرفيين براً وبحراً، ومقاومة الأخطار الأوروبية والتترية، وحرية العبادة، والتعاون في مجال القضاء على الجريمة[١].

وفي عهد المنصور قلاوون أجاب الفرنج إلى الهدنة التي طلبوها منه، وكان ذلك الطلب الصليبي بناء على النصر الذي حققه قلاوون على التتار[٢].

فنجد صاحب عكا يطلب الصلح من قلاوون سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م فأجابه وحدد شروطه[٣].

وقد تضمنت شروط المعاهدات التي عقدها المماليك هذه الجوانب من النواحي الاقتصادية والأمنية والعسكرية والجغرافية والمدة الزمنية والتحالفات، إلا أن هذه الاتفاقات لم تشمل الجانب الثقافي[٤].

وفي ذلك مراعاة لمصالح المسلمين، وخاصة أن المنطقة وسكانها يحتاجون إلى الأمان في حال الحصاد؛ كي يجمعوا ما يعينهم خلال العام كله، فلا يمكن لأي أمة أو شعب الاستمرار في القتال بدون اقتصاد قوي

---

(١) غوانمة، يوسف حسن، معاهدات الصلح، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٣١.

(٢) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٤) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار،تحقيق عبدالحميد صالح حمدان،الدار المصرية اللبنانية،١٩٩٣م، ص٢٦.

وتوفير الأمن الغذائي، وقد استفاد المماليك من عقد الهدن مع الصليبيين كثيراً من حيث استقرار الأوضاع، وتجهيز أنفسهم، وانتعاش التجارة وازدهارها، وتبادل التجارة وسير القوافل بين المدن الإسلامية، وتوفير المحصول وأوجد الفلاحين بمزروعاتهم وأرضهم، وخاصة في فلسطين[١].

وعندما وصل السلطان بجيشه إلى منزلة الروحاء بالقرب من حيفا، أسرع اسبتارية عكا بإنفاذ رسلهم إليه يسألونه تجديد الهدنة التي كانت قد عقدت مع السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م والزيادة عليها، وبعد مفاوضات سياسية عقد السلطان المنصور قلاوون هدنة معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، يبدأ أولها في ١٠ محرم ٦٨٠هـ/٣ أيار ١٢٨١م[٢]، وأهم ما جاء فيها:

أولاً: تعقد هدنة بين السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي الفتح قلاوون الملكي الصالحي وولده السلطان الملك الصالح علاء

(١) العسلي، بسام: الظاهر بيبرس، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٠٢.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦٨٢؛ بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ص١٠٣.

الدين علي، وبين حكام مملكة عكا، وصيدا، وعثليث وبلادها[1] لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

ثانياً: يكون جميع رعايا السلطان وتجار بلاده آمنين على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، أثناء ترددهم على عكا والأماكن الساحلية التي تشملها الهدنة.

ثالثاً: لا يتعرض الصليبيون في عكا والأماكن التي تشملها الهدنة بأي سوء لأراضي السلطان وولده، ولا لرعاياهم على اختلاف أجناسهم، وكذلك تكون جميع بلاد عكا وماعين في هذه الهدنة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان وولده، ومن عساكره ورعاياه.

رابعاً: لا يجدد الصليبيون في عكا وعثليث وصيدا حصناً أو سوراً.

خامساً: إذا أقدم أحد ملوك الصليبيين أو المغول على المسير لمهاجمة بلاد السلطان، يلزم نائب المملكة بعكا أن يخبر السلطان بحركته قبل وصوله إلى البلاد الإسلامية الداخلة في الهدنة بمدة شهرين.

---

(١) كانت عكا وصيدا وعثليث من بقايا مملكة بيت المقدس، وملكها آنذاك هو شارل أنجو، وقد تولى نائبه فيها أودوبو اليشيان مفاوضة السلطان في الهدنة. انظر: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٣٤، حاشية ٥.

سادساً: يكون الحجاج المسيحيون الذين يفدون من عكا والبلاد الساحلية لزيارة كنيسة القيامة آمنين في ذهابهم وقدومهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة، ولا يتعرض إلى القسيسين والرهبان بسوء[١].

سابعاً: يتعهد السلطان بحماية البلاد التي عقد معها هذه الهدنة من اعتداء جنوده والمتلصصين والمعتدين، كما يلزم حاكم عكا بدرء أخطار المفسدين الداخلين تحت حكمه عن بلاد المسلمين[٢].

وقد تعهد السلطان سيف الدين قلاوون، بأن يعمل على تنفيذ نصوص هذه الهدنة[٣].

وعقد هدنة أخرى في وقت لاحق مع بوهمند السابع أمير طرابلس[٤] مدتها عشر سنين، يبدأ أولها في ٢٧ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/١٦ تموز ١٢٨١م[٥]، تضمنت ما يلي:

أولاً: تعقد هدنة بين السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علي، وبين صاحب طرابلس لمدة عشر سنوات.

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧،ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢) راجع النص الكامل لبنود الهدنة في تاريخ ابن الفرات، م ٧، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٣) راجع نص اليمين في المصدر نفسه، ص٢٧٠-٢٧١.

(٤) بوهمند السابع: أمير أنطاكية وطرابلس، ولد سنة٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، وتوفي سنة٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٥٤٥.

(٥) بيبرس الدواداري: زبدة الفكرة، ص١٢٤-١٢٦.

ثانياً: يقيم نواب السلطان وصاحب طرابلس بمدينة اللاذقية للإشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة.

ثالثاً: على صاحب طرابلس ألا يبني خارج مدينته، ولا في البلاد التي وقعت هذه الهدنة حصناً أو قلعة، كذلك يتعهد السلطان بألا ينشىء قلعة تجاور البلاد التي وقعت هذه الهدنة.

رابعاً: لا تنقضي هذه الهدنة بوفاة أحد الطرفين المتعاقدين، أو بانتقال الحكم إلى غيره[١].

وبعقد هاتين الهدنتين أمن السلطان المنصور جانب الصليبيين، وتفرغ لمواجهة المغول في موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م[٢].

وبذلك يكون السلطان قلاوون وقع عقد هدنة مع قبرص، وهدنة مع عكا، وهدنة مع طرابلس[٣].

ومن خلال تتبع سيرة قلاوون في إبرام الهدن نلاحظ شيئاً مهما وهو أنه كان يعقد الاتفاقيات مع كل إمارة صليبية على حدة، ليسهل عليه مهاجمة غيرها من الإمارات، وحين يحاربها نفسها لا يدافع عنها غيرها، وهي سياسة قديمة حديثة "فرق تسد"، وكانت الهدنة التي عقدها قلاوون

---

(١) النويري:نهاية الارب في فنون الادب ، ج٣١، ص٧٤-٧٧.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ، ج٤، ص١٤.

(٣) العسقلاني، شافع: الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٤٣.

إنما هي نتيجة لانتصاراته الساحقة على المغول، حيث انتبه الصليبيون لقوته فارتأوا تجنبها من خلال عقد الاتفاقيات معه[١].

ثالثاً:حادثة سيف الدين كوندك:

بلغ الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي السلطان[٢]، وهو على الروحاء أن سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية، قد أزمعوا الغدر به والوثوب عليه، فأحضرهم إليه وعنفهم وعتب عليهم[٣].

واتفق وصول كتب من عكا بالفرنجي من جهة كان له فيها من الناصحين، مضمونه: أن تحترز على نفسك، فإن جماعة من الأمراء قد اتفقوا عليك ليقتلوك، وقد كاتبوا الفرنج وقالوا لهم: لا تصالحوه ولو أعطاكم ما أعطاكم، فقد طبخنا له القدر، وما بقي الأمر يبطئ، فلما بلغه هذا الخبر، عزم على العمل بالحزم، والأمر بالجزم، وأحس الأمراء المذكورون بذلك، فاضطربوا وعزموا على أن يركبوا في الليل ويأتون

(١) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص١٠٦.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٨٥.

(٣) بيبرس الدواداري: زبدة الفكرة، ج٩، ص١١٠.

إلى الدهليز باتفاق بينهم وبين بعض الظاهرية الجوانية[1]، فإذا قربوا من الدهليز قطعوا أطنابه، ثم يفعلوا ما اتفقوا عليه، فإن ظفروا بإبل، وإلا ركبوا حمية واحدة، وطلبوا جهة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، فنقل الخبر إلى السلطان، فسير إلى طرقات الشام بأن تحفظ عليهم المسالك من غير أن يعلموا، ورتب حول الدهليز جماعة من البحرية الصالحية، واتفق مع الأمراء الكبار على التحرز إلى أن يحصل الدخول إلى دمشق والتمكن منهم، وفعل ما يجب فعله؛ ثم رحل السلطان من الروحاء ونزل على اللجون[2]، فجاءه الخبر بأنهم أحسوا بتيقظه، وكان بينه وبينهم نهر الشريعة[3]، ومتى قطع لا يلحق هاربهم ولا يدركهم طالبهم، وربما توجه بعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى سنقر الأشقر، فركب من اللجون طالبا

---

(١) الجوانية: أي المماليك الجوانية، ويقصد بهم الخاصكية، أي خواص السلطان. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢١٧.

(٢) اللجون: بفتح اوله، وضم ثانية وتشديده، وسكون الواو، واخره نون واللجن واللزج بمعنى واحد، أو هو بلد بالأردن وبينه وبين طبرية عشرون ميلاً، وإلى الرملة بفلسطين أربعون ميلاً، فيه صخرة مدورة في وسط المدينة، عليها قبة، زعموا أنها مسجد إبراهيم عليه السلام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٤.

(٣) نهر الشريعة: هو نهر بين الأردن وفلسطين ويسمى بنهر الأردن يمر في بلاد الشام، يبلغ طوله حوالي ٨٠ كلم، وطول سهله حوالي ٣٦٠كلم، ويتكون من ثلاثة روافد. انظر:القلقشندي: صبح الاعشى،ج٤،ص٢٠٩.

حمراء بيسان[١]، وساق بينهم يومه ذلك يطارحهم الحديث ويلاطفهم ويخادعهم إلى أن وصل الحمراء فلم يشعروا إلا وهم قبالة الدهليز، فطلب منهم أن ينزلوا ليشربوا سويقاً[٢]، فإنه كان يوماً شديد الحر، فنزلوا وشربوا السويق، فدعا كوندك، وايدغمش الحكمي، وبيبرس الرشيدي، وساطلمش السلحدار الظاهري، وقال لهم: أنتم تعلمون أنني ما طلبت الملك ولا قصدته، ولا رغبت فيه، وإنما أنتم لما تآمرتم وخرجتم علي وأنا داخل من سيس[٣]، وأمسكتم ذيلي وقلتم: يطلب حبسك، فسيرت أشفع فيكم، فلا تقبل شفاعتي، فوافق هواكم وسلبت روحي وأولادي ومالي لأجلكم، وعلم الله نيتي، فأعطاني ما أعطاني، فأحسنت إليكم وزودتكم،

---

(١) حمراء بيسان: مدينة في الغور وهي مدينة عربية كنعانية، أطلق عليها الكنعانيون "بيت شان"، وأطلق عليها اليونانيون "سيكثوبولس" نسبة إلى عنصر يوناني استقر بها وأطلق عليهم اسم انطونيوس تخليداً لابن أخته، كما عرفت باسم مدينة الشمس. انظر: ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج١، ص٥٢٧.

(٢) سويقاً: الطعام المعمول من دقيق الحنطة غالباً بعد أن يحمص على النار، ويتم الاحتفاظ به لوقت الحاجة كأفضل أنواع الزاد والمؤونة؛ حيث يمكن اختزانه لفترات طويلة، ولسهولة حمله في الأسفار، كما يمكن الاستفادة منه على صورته الأولية كطعام جاهز، كما يمكن تحضيره بأشكال متنوعة أيضاً. انظر: الشيخ محمد باقر المجلسي: بحار الانوار، =الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤١٤هـ؛ الكليني: الكافي، دار الكتب الإسلامية، إيران، ١٣٦٥هـ، ج٦، ص٣٠٥.

(٣) سيس: عاصمة أرمينية الصغرى، كانت مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة على جبل مستطيل، ولها بساتين ونهر صغير، وهي الآن بلدة في جنوب آسيا الصغرى. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٣٩، حاشية رقم ٣.

وبذلت لكم الأموال، وآخر الأمر تكاتبون الفرنج على قتلي؟ فقالوا: أخطأنا، وقد فعلنا كما بلغ السلطان عنا؛ ثم أمر بإسكانهم وسط الخيمة، فأمسكوا وسيروا إلى الخيم، فأمسك كل من كان موافقاً لهم من البرانيين[١] والمماليك الجوانيين وكانوا ثلاثة وثلاثين نفراً، وخاف جماعة فهربوا، فساق العسكر خلفهم، فأحضروا بعضهم من جبال بعلبك، وبعضهم من ناحية صرخد[٢].

ولم يستقر السلطان بحمراء بيسان غير تلك الليلة وعبر الشريعة، وأما كوندك، وايدغمش الحكمي، وبيبرس الرشيدي، وساطلمش الظاهري، فإنهم أعدموا، وأما باقي الممسوكين فاعتقلوا بقلعة دمشق، وهرب الأمير سيف الدين اينمش السعدي، وسيف الدين بلبان الهاروني، وسيف الدين كراي وأولاده، وجماعة من البحرية الظاهرية والتتار الوافدية[٣]، فإنهم توجهوا إلى صهيون ولحقوا بالأمير شمس الدين سنقر

---

(١) البرانيين: أي المماليك البرانية، وهم الذين ليسوا من الخاصكية، ويطلق عليهم أيضاً "الخرجية". المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢١٧.

(٢) صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة انظر: ياقوت الحموي:معجم البلدان،ج٣،ص٤٠١ .

(٣) التتر الوافدية الاوبراتية: يقال لهم: التتر الوافدية، وهم قبائل من المغول وفدوا إلى دولة المماليك وتوطنوا في الشام ومصر وفلسطين وصاروا في جملة الجيش المملوكي. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٩٥.

الأشقر، وجرد السلطان خلفهم عسكراً صحبة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري[١] أمير صلاح والأمير ركن الدين بيبرس[٢]، فلم يدركوهم.

ورحل السلطان إلى دمشق، فتلقته العساكر الشامية، وكان دخوله دمشق في التاسع عشر من شهر المحرم، فطلع القلعة ونزل بها وقد زينت له البلد وشرع في استجلاب القلوب، وتجاوز عن الذنوب، وأخرج الخزائن، وأنفق في العساكر، وأخذ بإحسان الخواطر، فسكن إليه كل نافر وذاعر[٣].

رابعاً:صلح السلطان قلاوون مع المسعود بن الظاهر على الكرك:

ترددت رسل مسعود بن الظاهر من الكرك يطلبون الصلح على أن يكون له ما كان بيد الملك الناصر داوود، فلم يجبه السلطان إلى ذلك ولا إلى الإقامة في الكرك؛ بل يقول لهم في كل رسالة: "أنا أعطيكم قلعة غير الكرك"، فلما تقرر الصلح مع سنقر الأشقر خافوا الغائلة، وعلموا أنهم لا طاقة لهم بالمقاومة، وكانوا قد تقسمت آراؤهم وقطعت أطرافهم وتقاصرت بهم الأحوال والحواصل والأموال، فأجابوا إلى طاعة

---

(١) بكتاش الفخري: بكتاش عبدالله الفخري النجمي، أمير سلاح، والفخري نسبة إلى فخر الدين بن الشيخ. انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٨٠-٤٨١؛ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٨.

(٢) ركن الدين بيبرس الحلبي، ويعرف أيضاً بأياجي الحاجبي. انظر: بن تغري بردي، النجوم الزاهرة،ج٧،ص١٠٣ .

(٣) بيبرس الدواداري: زبدة الفكرة، ج٩، ص١١٠.

السلطان على أنه يبقيهم بالكرك وأعمالهم من الموجب[١] إلى الحسا، فأجابهم السلطان وعقد لهم حلفاً، والتمسوا شروطاً منها: تجهيز الإخوة الذكور والبنات أولاد الملك الظاهر من القاهرة إلى الكرك، ورد الأملاك الظاهرية عليهم، وتم الصلح على ذلك، وتوجه بدر الدين بيليك المحسني السلحدار والقاضي تاج الدين بن الأثير إلى الكرك وحالفا الملك المسعود وكوتب كما يكتب صاحب حماة واستقر الحال[٢].

خامس:تنظيم البريد اهتمامه بتكوين الفرق البرجية:

يذكر العيني أن السلطان قلاوون اهتم بـ "استجلاب المماليك والترك والتتار إلى هذه الديار، قصداً في الاستظهار والاستكثار وبذل الأموال لمن يحضرهم من التجار في المغاور والبحار، ورغبتهم بالمسامحات تحقيق الإيراد والإصدار، فجلبوا إليه منهم العدد الكثير والجم الغفير، حتى أنه اقتنى منهم عدداً لم يسبقه إلى مثلها أحد"، وقد قام السلطان قلاوون بعملية فرز وانتقاء لهؤلاء المماليك حتى استقر رأيه على عنصر بعينه، ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي من أن السلطان قلاوون قد أفرد

---

(١) الموجب: بلد بالشام بين القدس والبلقاء والحسا.البغدادي:مراصد الاطلاع:ج٣،ص١٣٣٠.

(٢) بيبرس المنصوري: زبدة الفكرة، ص١٩٤.

عدداً من مماليكه بلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة من الجركس جعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية[١].

ويستدل من ذلك على أن معظم المماليك الذين آثرهم السلطان قلاوون كانوا من الجركس، وقد جيء بهم من بلاد القسم الشمالي الغربي من القوقاز، أي حوض نهر قوبان، وقسماً من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود إلى أطراف بلاد الإنجاز جنوباً، ومن فروعهم السركس، والاركس، والكسا، والآص[٢].

وعلى الرغم مما اشتهرت به هذه القبائل من الشجاعة والفروسية فإن بعثرتهم بين مناطقها الجبلية ووديانها سهَّل خضوعها للمغول الذين شددوا غاراتهم على هذه البلاد منذ أواخر القرن ٧هـ/١٣م، وعندما تبوأ السلطان قلاوون عرش السلطنة لم يعجبه الزي السابق، ومن ثم أبطله وأبدله بزي آخر أحسن منه، وقد عد ذلك من محاسنه، وقد اعتبر "ماير" هذا التغيير إصلاح في الزي بدأه السلطان قلاوون وأكمله من بعده كل من ولديه الأشرف خليل، والناصر محمد بن قلاوون، وينحصر التغيير الذي حدث في عهد السلطان قلاوون في أمرين اثنين:

الأول: توسيع أكمام الأقبية بعد أن كانت ضيقة وشبيهة بزي الفرنج.

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٧٥٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٣٠. وتجدر الإشارة إلى أن ابن تغري بردي ذكر لفظ (المراء) بدلاً من لفظ (الأص).

(٢) حكيم، أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٢.

الثاني: أضاف إلى الشاشات[1] لباس الرأس بعد أن كانت غير موجودة في الزي السابق، ويضيف المقريزي على ذلك فيذكر أنه اقترح كل واحد من المنصورية ملابس حسنة، وأدخلت على الزي بعد ذلك تعديلات كثيرة أشار إليها المقريزي وغيره من المؤرخين، وليس هنا مجال الحديث عنها[2].

المبحث الثاني: تحالف المغول مع الأرمن ونتائجه:

كان الأرمن طوال تاريخهم يسعون للاستقلال بعيداً عن كافة الدول المحيطة بهم، أو على الأقل الاعتراف بالحكم الذاتي في ظل الخضوع لقوى عظمى تحمي كيانهم من الانصهار أو الاختفاء من صفحات التاريخ كحال غيرهم من الشعوب، وقد نجح الأرمن في بعض فترات التاريخ في تحقيق غايتهم تلك، وبظهور المغول على مسرح الأحداث التاريخية، وانطلاقهم من الشرق الأقصى زاحفين غرباً، كاسحين كل من صادف طريقهم، أدرك الأرمن خطورتهم، فالصمود في وجههم معناه

---

(١) الشاشات: هي القماش الرقيق الذي يلف حول العمامة. سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص٢٢١.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٩٨-٩٩.

اقتلاع رقبة الملك الأرمني وكذا أفراد شعبه، لذا سارع عاهلهم إلى بلاط خانهم الأعظم ليعلن فروض الولاء والتبعية والطاعة، فحظي بتقديره البالغ لإقدامه على ذلك طواعية وعن طيب خاطر، وليس عن هزيمة في معركة حربية كحال غيره[١].

وبالتالي تميز الملك الأرمني هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٦٩م) عن غيره في المعاملة، فعينه الخان الأعظم[٢] مستشاراً له فيما يتعلق بأمور منطقة الشرق الأدنى آنذاك، ومنذ ذلك الحين قامت مملكة أرمينية الصغرى بدور خطير في الصراع الإسلامي المغولي، ووصل الأمر مداه حين أصبح هيثوم الأول المحرض والمسير لأحداث الغزو المغولي للعالم الإسلامي، بل شارك في كافة غزواتهم المدمرة والتي أتت على الأخضر واليابس، وفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م سارت الأحوال في غير صالح هيثوم ومملكة أرمينية الصغرى فدفعوا الثمن بعد تمكن السلطان الظاهر بيبرس من إعادة نفوذ المماليك ليمتد حتى يصل إلى مداخل

---

(١) عبدالله جاسم علي آل ثاني: العلاقات السياسية بين المغول ومملكة أرمينية الصغرى، دار العلوم العربية، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٥.

(٢) "خاقان" لقب أطلقه المغول على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان الأعظم"، و"خاقان" يختلف عن "خان" الذي أطلقوه على رؤسائهم الذي يتولون جزءا من إمبراطورية المغول، وقد استعمل المغول لقب"خان" أيضا بمعنى "خاقان"، وربما كان ذلك من باب الرغبة في =الاختصار. انظر:مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٧٣، حاشية ١؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٣٠٧، حاشية٤.

قليقية، ولو ظل الأرمن بعيدين عن تحالف المغول بصفة خاصة والصليبيين بصفه عامه لكان خيراً لهم، وأدعى على بقائهم آمنين في ممتلكاتهم، بعيدين عن إثارة غضب مماليك مصر عليهم، وهكذا دفع الملك الأرمني هيثوم ثمنا باهظاً للكارثة التي حلت بمملكته؛ اذ تنازل عن العرش لابنه ليون الثالث سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، الذي بدوره استأنف سياسة أبيه القائمة على محالفته الغرب الأوروبي والمغول والصليبيين في مواجهة المماليك، ومما زاد من حنق بيبرس أن الملك الجديد أسرع بالمثول أمام كتبغا لإبداء فروض الولاء والطاعة، فاستقبله بحفاوة بالغة، وأعاده إلى بلاده محملاً بالهدايا الثمينة، وقد أدرج ابن العبري تاريخ تلك الزيارة تحت أحداث شهر يوليو عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، وذكر أن هدفها موافقة ايلخان المغول على تتويج ليون ملكاً، وأرجع ذلك إلى شيخوخة هيثوم(١).

وكان من نتيجة التحالف أن خرج ليو الثالث بنفسه على رأس حملة بعد أن أكمل كتبغا خان استعداداته(٢) وقد قدر عدد قواتهم بمائة ألف مقاتل(٣)، منها ثلاثون ألف نصراني(١) زحف بها على وادي العاصي(٢)،

---

(١) عبدالله جاسم علي آل ثاني: العلاقات السياسية بين المغول ومملكة أرمينية الصغرى، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٦.

(٣) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٨٢؛ الكتبي: عيون التواريخ،تحقيق حاطوم ،دار الثقافة،١٩٩٦م، ج٢١، ص٢٧٩؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧، ص٢١٦.

فوصلا أمام حمص، حيث كان جيش المماليك مرابطاً بها تحت قيادة السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، وفي موقعة حمص التي دارت سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م حلت الهزيمة بالمغول وقتل منهم خلق كثير، أما ليون الثالث فقد حلت بجيشه كارثة عندما أوقعه المماليك في كمين أثناء انسحابه إلى بلاده، فقتل وأسر معظم عسكره[٣] بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين[٤].

المبحث الثالث: جغرافية حمص:

حمص مدينة تأتي في الأهمية بعد دمشق وحلب، وتتمتع بموقع جغرافي فريد، فهي تقع في منطقة زراعية خصبة هي سهل الغاب[٥]، وصفها ياقوت الحموي بقوله: "حِمص: بالكسر ثم بالسكون والصاد مهملة: بلَدٌ مشهورٌ قديم كبير مُسَوَّر، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على

---

(١) لامب: شعلة الإسلام، ترجمة: محمود عبدالله، مكتبة المتنبي، بغداد، ١٩٦٧م، ص٦٠٤.

(٢) وادي العاصي:اسم نهر حماة وحمص ويعرف بالميماس،مخرجه من بحيرة قدس ومصبة في بحر قرب انطاكية. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٤،ص٦٧.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٦-٢٦٧؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، ج٣، ص٨٣-٨٤؛ أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٥؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧، ص٢١٢-٢١٩؛ لامب: شعلة الإسلام، ص٦٠٤-٦٠٥.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٦٩٨.

(٥) منير الخوري عيسى أسعد: تاريخ حمص، مطرانية حمص الأرثوذكسية، ١٩٨٤م،ق٢، ص٣٦-٣٩.

تلّ عالٍ كبير، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق، اسمها يُذَكَّر ويُؤنّث بناها رجل يُقال له: حمص بن المَهر بن جان بن مكنف، وقيل: بن مكنف العمليقي، وقال أهل الاشتقاق: حَمصَ الجَرْح يَحْمُصُ حُموصاً وانحمص ينحمص انحماصاً إذا ذهبَ وَرَمَهُ، وقال أبو عون في زيجة: طول حمص إحدى وستّون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلثان، وهي في الإقليم الرابع[١].

تقف من الغرب على نافذة البحر، وتستقبل من الشرق الصحراء، من جنوبها تلول ووهاد، ومن شمالها تلول وسهول، وبين هذا وذاك تتوسط هذه المدينة العظيمة السورية على خط عرض (٣٤.٧٤) شمال خط الاستواء، وخط طول (٣٦.٨٥) شرقي غرينتش، مقامة على هضبة واسعة مسطحة.

حدودها: يحيط بالمدينة من جهاتها الثلاث، سهول فسيحة تكاد تكون عارية من الأشجار والمرتفعات، إلا من جهتها الغربية حيث يمر نهر العاصي في وادي محفوف بالمرتفعات التي هي امتداد لسلسلة جبال لبنان الشرقية الواقعة شرقي حفرة الانهدام.

أهمية موقعة حمص: نظراً لموقع حمص المتوسط، وما تمتاز به من موقع تجاري؛ اذ إنها قريبة من مدينة طرابلس الساحلية التي تبعد عنها حوالي ٩٠ كيلو متراً، وبانياس، كما أنها تقع عند عقدة الخطوط

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج٢،ص٣٠٢.

السورية اللبنانية والطرق بين دمشق وحلب وطرابلس وبيروت والبقاع واللاذقية وتدمر، ولهذه الأسباب وغيرها تم اختيار حمص مكانا للمعركة[١].

المبحث الرابع: الاشتباك بين الجانبين ونتائجه:

بعد وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧م شجعت الأحداث التي حدثت بالدولة المملوكية إثر وفاته ايلخان المغول الحاقد على مصر والمماليك، ومن هذه الأحداث التي شجعته: نشوب الخلافات بين أفراد المماليك على السلطة في القاهرة، واغتصاب الأمير سنقر الأشقر السلطة في الشام، وإعلانه سلطاناً على بلاد الشام في شهر نيسان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٠م، وأرسل إلى المغول للدخول إلى بلاد الشام للنيل من أعدائه المماليك في مصر، فأخذت جيوش المغول تجتاح الحدود السورية مرة ثانية، مرتكبة ذات الفظائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاماً، وقد شجعهم على ذلك اتصال سنقر الأشقر بالمغول، واتفاقه مع كتبغا خان بأنه سيعمل على مؤازرته والوقوف معه في قتال سلطان المماليك في مصر كما ذكرنا

(١) منير الخوري، تاريخ حمص، ص٣٦-٣٩.

سابقاً، يؤيد ذلك ما ذكره المقريزي من أن الأمير "طرنطاي" لما أسر بعض أصحاب منكوتمر ومن بينهم حامل محفظته عثر فيها على كتب من سنقر الأشقر وأتباعه من الأمراء يحرضون فيها المغول على دخول الشام ويوعدونهم المساعدة[١].

ولكن السلطان سيف الدين قلاوون الذي تمكن من تولي السلطة في مصر في شهر كانون الأول سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م تمكن أيضاً من إيقاع الهزيمة بالأمير سنقر الأشقر في شهر حزيران سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٠م[٢].

وسارت القوات المغولية إلى جهة الشام في ثلاث فرق: الأولى سارت من جهة بلاد الروم بقيادة صمغار وتنجي وطرنجي، والثانية سارت من جهة الشرق بقيادة بيدو بن طوغاي[٣] بن هولاكو وصاحب ماردين[٤]، أما الفرقة الثالثة وفيها معظم الجيش المغولي، فقد سارت مع منكوتمر بن هولاكو، وبلغ عدد القوات المغولية خمسين ألفاً من

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٦٩٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٩.

(٣) بيدو بن طوغاي بن هولاكو: تولى حكم البلاد بعد مقتل الملك كيختو بن كتبغا بن هولاكو. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ص١١٩.

(٤) صاحب ماردين: هو الملك المظفر بن الملك السعيد الذي قدم للمغول فروض الولاء والطاعة عقب وفاة والده. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٥،ص٣٩.

الفرسان، وانضم له قرابة ثلاثين ألفا آخرين من حشود وجموع مختلفة مثل الكرج، والأرمن، والعجم وغيرهم[(١)].

وما أن علم أمراء المماليك بما فعله ايلخان المغول من اجتياحه للبلاد السورية حتى اتحدوا فيما بينهم وتعاهدوا على مواجهة المغول صفاً واحداً، ونبذوا الخلافات التي كانت بينهم بسبب السلطة، والتفوا حول الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي وجه همته إلى صد غارات المغول، وأرسل جزءاً من الجيش المملوكي عسكر بالقرب من حماة، ومن ناحية أخرى راسل أمراء المماليك سنقر الأشقر[(٢)].

كما جمع السلطان قلاوون القوات في مصر وأنفق في كل أمير ألف دينار، وفي كل جندي خمسمائة درهم، واستخلف على مصر ابنه الملك الصالح علي، وسار السلطان إلى غزه، ثم قدم عليه من كان ببلاد الشام من عسكر مصر وجماعة من أمراء الأمير سنقر الأشقر الذي تخلوا عنه فأكرمهم الملك المنصور[(٣)].

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٦٨٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٦٧٩.

(٣) المقريزي :السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٨٣؛ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٠؛ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٩٢.

وخرج الأمير ركن الدين أياجي علي[1] بعسكر من دمشق وانضم إليه العسكر المحاصر ليشزر، وكانت تابعة للأمير سنقر الأشقر؛ ثم سارت القوات من مصر بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمي، واجتمعت هذه القوات في ظاهرة حماة، وامتثل سنقر[2] وأنزل عسكره من صهيون وأمر رفيقه الحاج ازدمر أن يفعل كذلك من شيزر، وخيمت كل طائفة تحت قلعتها، ولم يجتمعوا بالمصريين؛ غير أنهم اتفقوا على اجتماع الكلمة ودفع العدو المخذول عن الشام، واستمروا على ذلك إلى يوم الجمعة حادي عشرين جمادى الآخر؛ حيث وصلت طائفة كبيرة من عساكر التتار إلى حلب ودخلوها من غير مانع يمنعهم عنها، وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء، وأفسدوا إفساداً كبيراً على عادة أفعالهم القبيحة، وأقاموا بها يومين على هذه الصورة؛ ثم رحلوا عنها في يوم الأحد ثالث عشرينه راجعين إلى بلادهم بعد أن تقدمتهم الغنائم التي كسبوها وكان شيئاً كثيراً[3].

---

(١) ركن الدين الحلبي، ويعرف بأياجي الحلبي. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة؛ج٧،ص٢٠٩. المقريزي: المواعظ والاعتبارج٣،ص١١٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٨-٢٩٩.

(٣) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٩٩.

وبقي السلطان في غزة إلى العاشر من شعبان عام ٦٧٩هـ/كانون الأول/١٢٨٠م فلما علم بعودة التتار إلى بلادهم عاد إلى مصر بعد أن غاب عنها خمسين يوماً[١].

ويصف المقريزي ما حدث لبلاد الشام من جراء حملة كتبغا خان بقوله: "ولما وصلت الأنباء بزحف المغول إلى أطراف حلب أخلاها أهلها ومن كان معسكراً فيها من الجنود، ونزحوا إلى حماة وحمص، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عين تاب، ودربساك، ودخلوا حلب نفسها، فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الأمراء، كما ارتكبوا في هذه الولاية من صنوف الوحشية والتعسف ما اضطر الأهالي إلى الفرار نحو الجنوب؛ ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والغنائم، أما أهالي دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب، وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر ليحتموا فيها"[٢].

أما عن الأسباب التي دفعت التتار إلى العودة إلى بلادهم والانسحاب من حلب فكان منها: اتفاق الأمير سنقر الأشقر وعسكر الملك المنصور قلاوون على قتال التتار، وذكر أيضا أن من أسباب رجوعهم أن بعض من كان استتر بحلب يئس عن نفسه من الحياة، فطلع منارة الجامع وكبر

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٨٣.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٦٨٠.

بأعلى صوته على التتار، وقال: جاء النصر من عند الله، وأشار بمنديل كان معه إلى ظاهر البلد، وأوهم أنه أشار به إلى عسكر المسلمين، وجعل يقول في خلال ذلك: اقبضوهم من البيوت مثل النساء، فتوهم التتار من ذلك وخرجوا من البلد هائمين على وجوههم، وسلم الذي فعل ذلك(١).

ولعل من أسباب رجوعهم أيضاً علمهم بخروج السلطان قلاوون بقواته من مصر لقتالهم(٢).

ويمكن أيضاً أن نضيف سبباً آخر وهو أنه لا يستبعد أن يكون المغول عند دخولهم حلب خافوا على ممتلكاتهم في إقليم فارس من تهديد مغول قبيلة الذهبية (القبجاق) حلفاء سلاطين دولة المماليك المسلمين، فاضطروا للعودة بهذه السرعة لتلافي ما قد يحدث لهم من تلك الجهة من أخطار نظير غيابهم في بلاد الشام، ومهما يكن من أمر فإن ما قام به المغول من مهاجمة للأجزاء الشمالية من بلاد الشام ودخولهم مدينة حلب، قد نبه السلطان المنصور قلاوون إلى خطرهم على ذلك الجزء من مملكته(٣).

مقدمة الصدام:

---

(١) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٨٣؛ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٠؛ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٩٢.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧-٧٨.

(٣) عبدالله سعيد الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، ص٢٣٧.

أصبح السلطان قلاوون بعد توحيد كلمة المسلمين في دولته ومهادنة الصليبيين على الساحل مستعداً لتوجيه ضربة قاصمة للمغول وحلفائهم للانتقام مما أنزلوه بحلب في السنة الماضية، وكان عسكر حلب هم السابقون إلى ذلك، فقد خرجت من حلب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م فرقة من "الغياره" ذكر ابن عبد الظاهر أنهم كانوا في ستمائة راكب أو سبعمائة راكب إلى بلاد الروم، وإنهم صادفوا قافلة سُكَّر، وصابوناً، وفستقاً، ورصاصاً، وقطناً، فخرج إليهم أكبر أمراء الروم المعروف بابن قطني ومعه ثلاثمائة راكب فقتلوه وقتلوا وجرحوا جماعة من أصحابه، ووصلوا إلى أوركلنا[1]، فهرب النائب بها وحضر إليهم جماعة من أصحاب ابن قرامان[2]، فاجتمعوا وساقوا إلى جبل بلغار فوق مندس وعادوا سالمين بين

---

(١) أوركلنا: يبدو أن المقصود بها "ارك" وهي مدينة صغيرة في طرق برية قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون. انظر ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١، حاشية رقم ٦.

(٢) ابن قرمان: هو صاحب دولة بني قرامان التي تأسست بجهات أرمناك وقسطموني بجنوبي آسيا الصغرى، في أواسط القرن السابع الهجري، ومن أهم الدول التركية ومؤسسها =كريم الدين قرامان، تولاها بعده ابنه محمد بن قرامان. انظر: المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٦٣٠، حاشية؛ ابن عبدالظاهرتشريف الايام والعصور، ص٢.

الجبال، وبين طريق سيس وبلاد الروم[١].

في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م علم كتبغا بن هولاكو بأن أهل الشام يهاجمون حدود بلاد الروم وديار بكر، ويدمرون تلك البلاد، وينهبون غلالها، ويثيرون الفتن، فتألم لذلك وصمم على الحركة إلى تلك البلاد، فسار متصيداً ولم يعبر نهر الفرات، فسارت القوات المغولية وبلغ عددها ثمانين ألفاً بقيادة منكوتمر شقيق كتبغا بن هولاكو، ودخل بلاد الروم ونزل بين قيسارية، والإبلستين[٢]، فلما علم الملك المنصور قلاوون بذلك أرسل الكشافة لاستطلاع أخباره وتحركاته وأهدافه، فقابلوا جماعة من التتار وأسروا واحداً منهم وأرسلوه إلى السلطان قلاوون، وكان السلطان قد وصل دمشق فاستماله حتى أخبره بأن التتار في نحو ثمانين ألف جندي سيهاجمون بلاد الشام في أول رجب ٦٨٠هـ/تشرين الأول ١٢٨١م، فأخذ السلطان قلاوون يستعد للأمر، واستدعى العساكر، وحضر إليه الأمراء بقواتهم من سائر الجهات في حين زحفت قوات التتار ومنها فرقة بقيادة الأمير كتبغا ملك التتار وتوجهوا نحو الرحبة،

---

(١) ابن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١، حاشية رقم ٦؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر ،تحقيق أبو صهيب الكريس،بولاق،القاهرة،(د.ت) ج٥، ص٣٩٩؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، ج٤، ص٨٢.

(٢) الإبلستين: مدينة ببلاد الروم اسمها الحالي البستان، وهي قريبة من أقسوس مدينة أهل الكهف. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان؛ج١،ص٧٢، جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص٩٨.

وفرقة ثانية بقيادة منكوتمر وترتب على ذلك اضطراب بلاد الشام وهروب الناس حتى خلت حلب من أهلها[١].

المبحث الخامس: تحركات الجيش الإسلامي:

أما الملك المنصور فإنه سار بقواته التي بلغت نحو خمسين ألف مقاتل إلى المرج[٢]، ومنه سار إلى حمص ومعه الجيش، ووصل إليها في الحادي عشر من رجب ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فلما علم به الأمير سنقر الأشقر صاحب صهيون حضر إليه على أن يعود إلى حصونه وأعماله بعد انتهاء القتال، وشرط عليه أن يحضر ومعه بعض الأمراء بعساكرهم وذلك لقتال التتار، فسر السلطان بذلك سروراً عظيماً، ثم تقدمت قوات المغول إلى عين تاب، وهاجم كتبغا بن هولاكو قلعة الرحبة في السادس والعشرين من جمادى الآخر بقوات بلغت ثلاثة ألاف فارس، وسار منكوتمر بقواته حتى وصل إلى حماة وخرب المناطق المجاوره لها[٣].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٩١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٩٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٢؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ، ج٤، ص١٤؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧، ص٢١٣.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ،م٧، ص٥٧.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧،ص٩٢-٩٣؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ص٦٩١-٦٩٢؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ص٩٢-٩٣.

وعلم السلطان قلاوون وهو في حمص بأن منكوتمر تقدم بخمسين ألف من التتار وثلاثين ألف من الكرج والروم والأرمن والفرنجة، وعلم السلطان أيضا أن الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق هرب إلى منكوتمر وأخبره بأحوال المسلمين، ودله على عورات المسلمين، كما أن شخصاً من معسكر المغول دخل حماة وقال للنائب بها: اكتب الساعة إلى السلطان على جناح طاير، وعرفه بأن القوم ثمانون ألف مقاتل وفي القلب منهم أربعة وأربعون من المغول، وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، فيقوي ميسرة المسلمين ويحترز على السناجق[(١)].

المبحث السادس: حالة كل من الجيش المملوكي والجيش المغولي:

فلما قرأ السلطان الكتاب رتب عسكره، وذلك في صباح يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فجعل في الميمنة الملك المنصور وصاحب حماة والعسكر الحموي، وعلى رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، ومعهما عدد آخر من كبار الأمراء، وجعل في الميسرة الأمير سنقر الأشقر ومن معه من الأمراء الظاهرية، بالإضافة إلى عدد أخر من كبار أمراء السلطان نفسه، وجعل على رأس

---

(١) السناجق: مفردها سنجق وهي لفظ تركي معناه الرمح، والمراد به هنا (العلم) الذي هو الراية، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح عُبر بالرمح نفسه عنها، ويقال لحامله: السنجقدار. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص٦٠٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٦٩٩.

الميسرة التركمان بجموعهم، وعسكر حصن الأكراد، وعلى الجاليش وهو مقدمة القلب الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بالديار المصرية ومن معه من مضافيه، والأمير ركن الدين أياجي والحاجب بدر الدين بكتاش بن كرمون، والمماليك السلطانية، ووقف السلطان تحت السناجق ومعه خاصته وأرباب الوظائف[١].

ويضيف المقريزي: "إن السلطان[٢] اختار مائتي فارس من مماليكه، وانفرد عن العصائب[٣]، ووقف على تل، فكان إذا رأى طلباً[٤] قد اختل أردفه بثلاثمائة من مماليكه"[٥].

---

(١) الأطلاب: جمع طلب، وهو الكتيبة من الجيش، ومعناه الأصلي: الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، وأطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين. أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٦١٤، حاشية١.

(٢) هو حسام الدين طرنطاي بن عبدالله المنصوري، توفي سنة ٦٩٩هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٤.

(٣) العصائب: مفردها عصابة، وهي ما بين العشرة إلى الأربعين. انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (عصب)، أما المقصود به هنا: فهي راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٦٠.

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩،ص ٢١٢ .بيبرس المنصوري:التحفة الملوكية، ص٩٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧، ص٢١٥-٢١٦؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ، ص٦٩٢-٦٩٣؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٥.

(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٩٣.

أما الجيش المغولي فكان يقدر بمائة ألف مقاتل، وقد تم تقسيمهم إلى ميمنة، وميسرة، وقلب، ضمت الميمنة المقدمين (طنجو، وبلطو، وصمغار، والتاف)، وأما الميسرة فضمت المقدمين (قرمش، وبراجار، وتمدار)، وفي القلب كان منكوتمر بن هولاكو وبعض الأمراء، والملاحظ في هذا التقسيم بأن المغول كانوا حريصين على الدوام على سلامة الخان، أو من ينوب عنه في المعركة من الأمراء أو كبار القادة المشهورين، ولهذا فقد كانوا في جميع الحملات العسكرية يرتبونهم في القلب، ليقينهم التام بأن وضعهم في هذا الموضع أكثر أماناً، وأقل عرضة للصدمات من الأعداء، وحتى يسهل عليهم رؤية الجند وإعطائهم التعليمات والتوجيهات أثناء سير القتال، فمركز الوسط أسهل لإدارة المعركة من أي مركز آخر(١).

المبحث السابع: الاشتباك مع المغول:

وفي يوم الخميس رابع عشر من شعبان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، ركب الملك المنصور بعساكره وصف الجموع، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقعوا من صحوة النهار إلى آخره، وعظم القتال بين الفريقين، وثبت كل منهم، قال الشيخ قطب

---

(١) قاسم محمد مزعل غنيمات: الجيش المغولي، دائر المكتبة الوطنية، الاردن، ٢٠١٢م، ص٧٢.

الدين اليونيني: "كانت وقعة عظيمة لم يشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الرستن[1] والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين، وحملت قوات العدو على ميسرة المسلمين فكسروها وانهزم من كان بها، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر، وثبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله في جمع قليل بالقلب ثباتاً عظيماً، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحرق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والغلمان والرجال المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، وأشرف الإسلام على خطة صعبة، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم، مثل: الأمير سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري، وعلم الدين سنجر الدويداري، وعلاء الدين طيبرس الوزيري، وبدر الدين بيليك أمير سلاح، وسيف الدين اجتمش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، والأمير حسام الدين طرنطاي وأمثالهم، لما رأوا ثبات السلطان ردوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة، فانهزم التتار، وجرح منكوتمر مقدم التتار،

(١) الرستن: بلدة قديمة بين حماة وحمص في نصف الطريق، بها آثار باقية إلى الآن تدل عل جلالتها، وهي خراب ليس بها ذو مرآى، وهي في علو تشرف على العاصي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٤، حاشية ١.

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عربه عرضاً فتمت هزيمتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوزت الوصف، واتفق أن ميسرة المسلمين كانت انكسرت كما ذكرنا، ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير، والأمير حسام الدين طرنطاي قدامه بالسناجق، فعادت ميمنة التتار الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم، وهو في ذلك النفر تحت السناجق (يعني الملك المنصور) قال: ولقد مررت به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف فارس إلا ذلك، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كسرت ميسرة المسلمين) ثبت لهم ثباتاً عظيماً[١]، ثم ساق عليهم بنفسه فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء، وكان ذلك تمام النصر، وكان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب، وافترقوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سليمة والبرية، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات، ولما انقضت الحرب في ذلك النهار عاد السلطان إلى منزله، ولما أصبح بكرة من يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان، يتقدمهم الأمير بدر الدين بيليك الأيمدمري[٢]، كان لما لاحق الكسرة على المسلمين نهب لهم من الأقمشة والأمتعة والخزائن

(١) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٣-٣٠٥؛ المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١، ص٦٩٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٩٥

(٢) الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري: صاحب بلدة الشوبك، وهي قلعة حصينة في أطراف الشام، بين عمان وأيلة القزم قرب الكرك، وقد تسلمها سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٦٧٠.

والسلاح ما لا يحصى كثرة، وذهب ذلك كله أخذته الحرافشة[1] من المسلمين مثل الغلمان[2].

وبعد ذلك الانتصار العظيم رحل السلطان قلاوون إلى دمشق فوصلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب، فكان يوماً عظيماً، عظم فيه سرور الناس وكثر فرحهم، وامتدحه الشعراء وأكثروا المديح والتهنئة بهذا النصر العظيم[3].

ولما استقر بدمشق جرد فرقة من عسكره مع الأمير بدر الدين الأيدمري إلى الرحبة لتتبع كتبغا ومن معه من المغول، وبعث في الوقت نفسه إلى نائبها يخبره بما من الله عليه من النصر، فلما سمع كتبغا بذلك رحل عنها وقصد بغداد، ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى حلب، وعبر المغول الفرات خوفاً فغرق منهم خلق كثير، وتوجهت طائفة منهم إلى قلعة البيرة، فقاتلهم أهلها ومنعوهم من دخولها، كما توجهت فرقة

---

(١) الحرافشة: جمع حرفوش، وهو ذميم الخلق والخلق. ابن تغري بردي: النجوم الزاهره، ج٧، ص٣٠٥، حاشية ١.

(٢) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٣-٣٠٥؛ المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١، ص٦٩٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٩٥، الديار البكري، تاريخ =الخميس في أحوال النفيس ،القاهرة،١٨٦٦م، ج٣، ص٤٢٤؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ، م٧، ص٢٢٧؛ الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٤١.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٠٠.

أخرى وفيهم صاحب سيس[1] وأقاربه إلى بغراس، فخرج عليهم أهلها وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، أما الفرقة التي كانت قد توجهت إلى سليمة، فقد خرج عليهم أهل الرحبة وطردوهم منها، فلحق من بقى من المغول بكتبغا وهو في طريقة إلى بغداد، وفيهم أخوه منكوتمر وهو مجروح، فغضب عليه وعلى من معه من كبار المغول، وبهذا تمكن السلطان المنصور قلاوون من إفشال محاولة المغول السيطرة على مدن الشام الشمالية، وطهر بلاد الشام منهم مرة أخرى، بعد أن أثخن في جيوشهم قتلاً وأسراً، ولقنهم درساً لن ينسوه، ليتفرغ بعد ذلك لمواصلة مشروع تصفية الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي الذي بدأه أسلافه زعماء حركة الجهاد الإسلامي عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين والظاهر بيبرس[2].

---

(١) سيس: عاصمة أرمينية الصغرى، كانت مدينة كبيرة ذات أسوار منيعة على جبل مستطيل، ولها بسلتين ونهر صغير، وهي الآن بلدة جنوب آسيا الصغرى. ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٢٨١.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٥٩؛ بيبرس المنصوري:التحفة الملوكية، ص٢١٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م٧، ص٦٩٨-٦٩٩؛ رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج٢، ص٨٤.

المبحث الثامن: أحوال دمشق ومصر أثناء موقعة حمص ٦٨٠هـ/١٢٨١م:

اضطربت بلاد الشام بسبب غزو التتار للبلاد، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهال والتضرع إلى الله عز وجل في تلك الأيام، لا يفترون عن ذلك حتى ورد عليهم هذا النصر العظيم ولله الحمد والمنة، وطابت قلوب الناس، ورد كل من نزح عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل واحد، وتضاعف شكر الناس لذلك(١).

وقال الذهبي: "وزينت البلاد، وعاشت العباد، ووصل جند النصر بكرة يوم الجمعة سادس عشر شهر رجب بعد أن عاين دمشق من نصف الليل إلى بكرة سكرات الموت، وتودعوا من أولادهم وأحبائهم، فإن عدوهم كانوا كفاراً لا يبقون على مسلم لو ظفروا وملكوا، واستشهد نحو المائتين(٢).

وهنا نؤكد على ضرورة ترابط الأمة في وقت الشدائد، علاوة على سائر الأيام، ففي زمن الجهاد والقتال كان الناس في رباط شامل، ففي المدن تجمع الخلق في المساجد والجوامع، يقرؤون القرآن الكريم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٥.

(٢) الذهبي: دول الإسلام، ج٢، ص١٨٣.

وصحيح مسلم والبخاري، ويصلون ويدعون الله تعالى، ويبتهلون إليه أن ينصر الإسلام، ويضجون بالبكاء، ويسألون الله في إخلاص أن يؤيد جيش الإسلام في ميدان المعركة، ولا يتركون هذا حتى يأتيهم الجند على وجه السرعة بالنصر، فيزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ويشكرون الله بالصلاة والحمد والتكبير وخير الدعاء، وهذا يعكس المعنى العظيم: أن المسلمين كالجسد،وكان نائب قاقون قد أرسل رسالة سريعة إلى مصر أخبر فيها بأن جماعة المنهزمين في ميسرة الجيش الإسلامي قد وصلوا إلى قاقون ناجين بأنفسهم، ووصل بعض الأمراء إلى قطيا(١) في الطريق إلى مصر منهم ابن الايدمري، فشق ذلك على أهل مصر، فأخذ الناس يقنتون في صلواتهم، وكثرت قراءة صحيح البخاري والقرآن الكريم، ثم اجتمعوا في المشهد الحسيني، وفي الجوامع والمساجد، وأخذوا يدعون الله بالنصر للإسلام، ومما زادهم قلقاً ما جاء في رسالة نائب قاقون من انهزام العسكر الإسلامي، فنهض الملك الصالح علي بن قلاوون وأرسل على الفور فرقة من الجيش بقيادة الأمير صارم الدين أزبك الفخري ومعه كثير من العربان إلى قطيا، وذلك لمنع دخول أحد من المنهزمين إلى مصر، وإعادتهم إلى السلطان، وذلك حفاظاً على مشاعر الناس، وعدم

---

(١) قطيا أو قطية: بالفتح ثم السكون، وياء مفتوحة، قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما، بيوتهم طرائف من جريد النخل، بها أصحاب السلطان لوزن مقرر علي المجتاز بهم بمعنى نقطة جمارك ومراقبة. انظر: البغدادي:مراصد الأطلاع، ج٣، ص١١١١.

إضعاف الروح المعنوية عند أهل مصر، ولكن هذه الساعات من القلق والخوف والاضطراب لم تستمر طويلاً، إذ وصلت البشائر تحملها الطيور المختلفة[1] بأن الله نصر المسلمين على الأعداء؛ ثم قدمت كتب البريد تحمل البشائر بالنصر، فدقت البشائر في القاهرة وزينت المدينة، وكذلك باقي البلاد، فأرسل الملك الصالح إلى السلطان يشفع في المنهزمين ويطلب منه العفو عنهم، وقام السلطان بإعادة الأمير سنقر الأشقر إلى حصن صهيون على عادته، ورد معه من الأمراء من أراد، هذا على الرغم من أن السلطان علم بمكاتبة الأمير سنقر الأشقر وأصحابه للتتار يحثوهم على مهاجمة بلاد الشام، إلا أنه كتم هذا بعد أن تحقق النصر، ثم تقدم إلى دمشق فدخلها السلطان يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وعظم سرور الناس وفرحهم، ثم سار السلطان في الثاني من شعبان متوجهاً إلى مصر، فزينت القاهرة لاستقبال السلطان المنصور، ثم دخل قلعة الجبل يوم

(١) الطيور المختلفة: وهي الطيور المعطرة بالرائحة العطرية المسماة خلوف، وكانت العادة في نقل الأخبار السارة وخصوصاً البشائر بنصر الإسلام في المعارك أن تمسح الطيور (حمام الزاجل)، والبطائق التي تحملها بهذه المادة من العطور، أما طيور الأخبار السيئة وبطائقها فكانت تلطخ بالسواد، فيراها الناس فيعلمون فوراً المعنى، وهذا الترتيب دال على أهمية الروح المعنوية، وكيف أن الخبر السار ينشرح له صدر الناس قبل قراءة الرسالة التي تحملها الحمامة الرسائلية، فإذا فاحت رائحة العطور أدركوا فوراً أن البرقية تحمل خبراً ساراً فتتم قراءة الرسالة بهدوء وسرور. انظر فايد عاشور: العلاقات السياسية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص١٢١.

السبت الثاني والعشرون من شعبان سنة ٦٨٠هـ/كانون الأول ١٢٨١م، وأسرى التتار بين يديه وقد حمل بعضهم الصناجق التترية (الرايات) وهي مكسورة، وكان يوم دخول السلطان قلعة الجبل يوماً مشهوداً يتناسب مع الانتصار العظيم الذي أيدهم الله فيه على عدوهم، وحصل للناس السرور الذي لا مزيد عليه، وعملت القلاع وزينت المدن، حدث هذا النصر بينما كان كتبغا ملك التتار محاصراً للرحبة، فوصلت بشائر السلطان إلى نائب الرحبة تبشر بهزيمة التتار في حمص، فدقت البشائر في قلعة الرحبة، فعلم العدو بذلك، ومن ثم قرر كتبغا الرحيل فوراً إلى جهة بغداد، وكانت الهزيمة في حمص شديدة الوقع على التتار وخصوصا كتبغا[١].

المبحث التاسع: موقف كتبغا خان من الهزيمة:

لما علم كتبغا خان بانهزام أتباعه وهو على الرحبة رحل إلى بغداد، ولحق به من نجا من المغول وفيهم أخوه منكوتمر الذي استاء منه كتبغا لعجزه عن إلحاق الهزيمة بجند المماليك، وقال له: "لو مت أنت والجيش ولا انهزمت"[٢].

أما عن القائد منكوتمر المهزوم فيذكر الحافظ الذهبي أنه توفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م وأنه كان نصرانياً يوم المصاف على حمص، وحصل

---

(١) ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) الذهبي: العبر، ج٥، ص٣٢٦.

له ألم وغم بسبب هزيمته، واعتراه فيما قيل صرع متدارك، كما اعترى أباه هولاكو، فهلك في أوائل المحرم بقرية تل الخنزير من جزيرة ابن عمر، وله ثلاثون عاماً، وكان شجاعاً جريئاً مهيباً[١].

وهكذا هزم المماليك كتبغا خان في ثلاثة حروب هي: "البيرة، إبلستين، وحمص" ومن قبلها عين جالوت، وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين سوريا وبلاد ما بين النهرين، وكان كتبغا خان أعظم أمراء المغول مسرافاً في الشراب، ومات بسببه في أواخر سنة ٦٨٠هـ أول نيسان ١٢٨٢م، بمرض هذيان السكارى، وهو نوع من الحمى نتيجة السكر الشديد، بنواحي همدان في الفترة ما بين العيدين، وله من العمر نحو خمسين سنة بعد أن تربع على العرش الإيلخاني مدة سبع عشرة سنة قضاها في حروب مستمرة مع جيرانه في الشرق من أبناء عمومته المغول، والغرب من أعداء المغول التقليديين بين المماليك حكام مصر والشام[٢].

المبحث العاشر: ما قيل شعراً عن معركة حمص:

اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يكون التدافع هو القانون الرباني الذي يحكم حركة التاريخ على هذه الأرض، فما تكاد لحظة من لحظات

---

(١) الذهبي:العبر،ج٥، ص٣٣٧.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٧٢.

البشرية تمر إلا ويتحقق فيها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَفَسَدَتِ الأَرضُ﴾(١).

وإن من الحكمة أن ينظر الإنسان نظرة اعتبار في تاريخ البشرية، ليعرف خطوط حركتها، ومراحل مسيرتها، وبخاصة في تاريخ الأمة التي ننتمي إليها، وقد هيأ الله عز وجل لي أن أطلع على حقبة من التاريخ، لقيت فيها أمتنا الإسلامية أشد ما يمكن أن تلقاه أمة من غاز أو مستعمر، وذلك عندما هب إعصار التتار على الشرق الإسلامي، فلم يبقِ فيه ولم يذر، وترك أكثر عمرانه خراباً.

وقد سُطرت الكثير من القصائد في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م حيث تغنى بها الشعراء في أكثر من قصيدة، ومنها: قصيدة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وفيها أبيات يصف فيها السلطان قلاوون وحسن بلائه في موقعة حمص، فيقول:

أم لله في حمص مقاماً … قامه والنار من بين الأسنة توهج
والناس قد فروا فلا مترتب … والناس قد هربوا فليس معرج
وهناك من يجد الملائك عصبة … جاءته للنصر المبين تروج
وهناك خالد قد أجار نزيله … ونزيل خالد ليس ممن يزعج
فثنى العنان وما انثنى حتى … بدا للدين من أمر الأعادي مخرج
ملك به ود الأعادي … مما سبى أولادهم لم (ينتجوا)
البحر لولا أنه من كفه … ما كان منه جوهر يستخرج
والصبح لولا أنه من شبه … ما فات ركض البرق منه مهملج
والليل لولا أنه من دهمه … ما كان بالشهب الثواقب يسرج
والنصر لولا أنه من سيفه … ما كان كرب في الوجود يفرج

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

والروض لولا أنها من وجوده ما كان منها كل صدر يثلج
والنار لولا أنها من سخطه ما أحرق الأعداء منه تأجج
فلمدحه ما حاكه ذو فكرة ولرمحه من نثره ما ينسج
يرضيك من فوق السوابح أروع منه ومن تحت التريكة أبلج[1]

ومن الشعراء الذين تغنوا بموقعة حمص القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر يمدح السلطان قلاوون عندما هزم التتار في معركة حمص، ولد بالقاهرة سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، سمع وحدث وساد في دولة المنصور قلاوون، وتقدم على ولده، توفي سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م[2].

والقاضي ناصر الدين بن العسقلاني أحد كتابه، وكان مغرماً في الفنون الأدبية والشعرية، ذكر هذه النصرة المنصورية وهو القاضي ناصر الدين بن العسقلاني، شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني وليس في اسمه حسن، وقد تكون زيادة حسن في اسمه وهماً، ولد سنة ٦٤٩هـ، وتوفي سنة ٧٣٠هـ، وعمي بعد إصابته بسهم في وقعة حمص[3].

وقال الصفدي: وأنشدني شهاب الدين محمود إجازة، قصيدة مدحه بها، والممدوح هو السلطان لاجين، الملك المنصور حسام الدين

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٦١-١٦٢.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، داراحياء التراث العربي،٢٠٠٣م، ج٣، ص٣٦٧-٣٦٨.

(٣) بيبرس المنصوري:زبدة الفكرة: ج٩، ص١٦٢-١٦٤.

المنصوري، ناب عن قلاوون سنة ٦٧٨هـ/١٢٩٧م، وتسلم السلطنة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، قتل سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م[١].

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص١٨٣-١٨٤.

الفصل الرابع:

انتصار المسلمين في معركة حمص

أسبابه ونتائجه

المبحث الأول: أسباب انتصار المسلمين في معركة حمص

- عدم تحالف الصليبيين مع المغول.
- الصراعات داخل البيت المغولي
- أساليب المماليك القتالية والتعبئة العسكرية.
- المتطوعون في الجيش المملوكي.
- الخطط العسكرية وإدارة المعارك.
- دور العلماء في معركة حمص.

المبحث الثاني: نتائج معركة حمص

- تحالف المماليك مع المغول.
- ارتفاع قيمة القاهرة.
- المغول والتتار يدخلون في الإسلام.
- عودة الوحدة بين مصر والشام.
- تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام.

الفصل الرابع:

انتصار المسلمين في معركة حمص، أسبابه ونتائجه:

المبحث الأول: أسباب انتصار المسلمين في معركة حمص:

أولاً: عدم تحالف الصليبيين مع المغول:

في ضوء ما سبق نرى أنه لم يتم عقد تحالف فعلي بين المغول من جهة، والصليبيين في أوروبا والشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، وذلك لأسباب منها:

كان أمل الأوروبيين ضعيفاً في استرداد الأراضي المقدسة بعد أن حاولوا ذلك سنين طويلة، لانشغالهم بخلافاتهم الداخلية، وفتور الحماية الصليبية.

والمغول في إيران كانوا حكاماً لبلاد إسلامية من الصعب عليهم كحكام غير مسلمين السيطرة على شعوب مسلمة لفترة طويلة وسوقها لمحاربة مسلمين، مما كان يضطر بعضهم إلى مصانعة المسلمين، ويضطر البعض الآخر إلى اعتناق الإسلام ومصادقة المماليك، ومحاولة الابتعاد عن الأوروبيين، ولا يخفى أن اعتناق بعض الإلخانات للإسلام كان يتسبب في فتور همته في عدائه للمسلمين[1].

---

(١)عبدالقادر أحمد يوسف:العلاقات بين الشرق والغرب ،ص٢١٦.

يضاف إلى ذلك أن تحالف مغول القبيلة الذهبية المتواصل مع المماليك وتعاونهم الفعلي معهم لدفع خطر أقربائهم مغول فارس، وتهديدهم لحدودهم، كان يخفف من حدة توجه هؤلاء نحو بلاد الشام ويشل قوتهم.

أما الصليبيون في الشرق فقد وقفوا مواقف متفاوتة من المغول والأوروبيين، فقد أحجمت بقاياهم في الشام عن التعاون معهم، ونظروا للمغول نظرة شك وخوف، بل وتعاونوا أحيانا مع المماليك ضدهم، بينما اقتصر موقف نصارى بلاد الشام على التعاون مع المغول وإظهار السرور بانتصاراتهم، وإظهار الشماتة بهزائم المسلمين بطرق غوغائية، واحتفالات مهرجانية لا يلبثون أن يتلقوا العقوبة عليها. ولم تكن جهودهم تتجاوز ذلك لأن خبرتهم التاريخية أقنعتهم بعدم جدوىَ ذلك[(١)].

ولم يكن حليفا للمغول إلا دولتي أرمينية الصغرى وبلاد الكرج، وهؤلاء كانوا أقرب إلى التابعين للمغول منهم إلى الحلفاء، حيث كانوا تحت سلطة المغول كتابعين أذلاء لا يملكون من أمرهم شيئاً. وهكذا لم يرد الله تعالى لهذه المحاولات الخبيثة أن تتم.

ثانياً: الصراعات داخل البيت المغولي:

---

(١) عبد القادر أحمد يوسف: العلاقات بين الشرق والغرب، المكتبة العصرية، صيدا، (د. ت)، ص٢١٦.

يطلق اسم القبجاق (القبشاق) أو (القبيلة الذهبية) golden horde على المغول الذين أقاموا في البلاد التي منحها جنكيز خان قبل وفاته لابنه الأكبر جوشي، وتشمل سهول جنوب روسيا وأقصى غرب آسيا وسيبيريا فيما بين نهر آتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وسمي هؤلاء باسم القبيلة الذهبية لأن خيام معسكراتهم كانت ذات لون ذهبي(١).

وانقسمت هذه الدولة بعد جوشي ٦٢٤ هـ/١٢٢٧م بين أولاده الأربعة عشر الذين كانوا بزعامة أكبرهم (أوردا)، ثم سيطر أخوه باطو على القسم الغربي من المملكة الذي سمي باسم القبيلة الزرقاء أو القبشاق الغربي، واقتصر حكم (أوردا) على القسم الشرقي الذي عرف بالقبيلة البيضاء(٢).

ولما كان باطو هذا على قدر من الشجاعة والقوة فقد غزا أوروبا، وتوغل في روسيا وبولندا والمجر سنة ٦٢٥-٦٤٠هـ/١٢٢٧-١٢٤٢م، وحمل اسم خان القبيلة الذهبية بشكل عام، وطغى اسمه على اسم أخيه أوردا(٣).

وخلف باطو خان ابنه طرطق خان الذي توفي في نفس السنة؛ ليخلفه ابن أخيه وهو بركة خان بن ناظو خان بن جوشي سنة ١٢٥٦-

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق١، ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه : ج٢، ص٢٠٩-٢١٠.

(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٣٩٤-٣٩٥، حاشية ٢؛ عاشور، فايد: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، ص٢٠٦.

١٢٦٧م/٦٥٦-٦٦٦هـ الذي اعتنق الدين الإسلامي على يد أحد التجار، فجعل الإسلام دين الدولة الرسمي، وأظهر شعار الإسلام وقرب العلماء، كما أسلمت زوجته، وبنت لها مسجداً، ورغم محاولات البعض التشكيك في صحة إسلامه إلا أن التاريخ يعلمنا أنه أسلم منذ صغره، وأنه حفظ القرآن الكريم، وأن جيشه كان مسلماً يحمل كل فرد سجادة صلاة، وهذا أغضب خصومه حتى تآمروا عليه(١).

وبما أن هذه القبيلة كانت على عداء دائم مع أقربائهم وجيرانهم مغول فارس، الذين كان يتزعمهم هولاكو وخلفاؤه، بسبب خلافاتهم على الأرض وعلى زعامة المغول، فإنه كان من الطبيعي أن يتعاون القبجاق مع أكبر دولة إسلامية تحمي الإسلام والمسلمين وهي دولة المماليك، العدوة الطبيعية لأعدائهم مغول إيران، كما كان من الطبيعي أيضا أن يتحالف مغول إيران مع الصليبيين أعداء المماليك، وازدادت حاجة كل منهما إلى حليفه بازدياد الصراع بين هولاكو وبركة خان عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م، عندما هزم بركة خان زعيم القبيلة الذهبية هولاكو خان

---

(١) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٠٢، حاشية رقم ٢. ويروي ابن خلدون في تاريخه ج٥، ص٥٣٤: أنه أسلم على يد الشيخ شمس الدين الباخوري الذي كان مقيماً في بخارى، حيث دعاه إلى الإسلام فاستجاب لدعوته وذهب إلى بخارى وأعلن إسلامه، وعاهد الشيخ على العمل على نشر الإسلام. انظر: سير توماس و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص ٢٥٩.

زعيم مغول إيران، فقام هولاكو بالانتقام من تجار من القبجاق تابعين لبركة خان بأن قتلهم في بلاده، فأغضب ذلك بركة خان فأمر أفراد جيشه الذين كانوا يحاربون مع هولاكو أن ينضموا إلى الظاهر بيبرس ففعلوا(١).

وقد وصف القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ٦٢٠-٦٢٢هـ (٢) وهو معاصر للأحداث وصول هؤلاء الجنود الفارين من جيش هولاكو فقال: "وصل كتاب الحاج علاء الدين متولي دمشق سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م بأن الكشافة وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة، وكانوا نجدة عند هلاون (هولاكو) فلما وقع بينهما كتب الملك بركة إليهم بالحضور إليه، وإن لم يقدروا على ذلك ينحازون إلى عسكر الديار المصرية،

---

(١) جمال سرور: دولة الظاهر بيبرس ، ص١١٠، حاشية ١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣/ص٢٣٤. أشار إلى ذلك بقوله: "وفي ذي الحجة قدمت وفود كثيرة من التتار على الملك الظاهر مستأمنين، فأكرمهم وأحسن إليهم وأقطعهم إقطاعات حسنة"، وأشار إلى سبب النزاع بين بركة وهولاكو قائلاً: "وفيها -أي سنة ٦٦٠هـ- وقع الخلاف بين هولاكو وبين السلطان بركة خان ابن عمه، وأرسل إليه بركة يطلب منه نصيباً مما =فتحه من البلاد وأخذه من الأموال على ما جرت به عادة ملوكهم، فقتل رسله، فاشتد غضب بركة، وكاتب الظاهر ليتفقا على هولاكو"، ويصف في ص٢٣٩، حوادث سنة (٦٦١هـ) (١٢٦٣م) قائلاً: "وفيها التقى بركة خان وهولاكو فاقتتلوا، فهزم الله هولاكو هزيمة فظيعة، وقتل أكثر أصحابه". ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص١٣٧.

ويذكرون أن العداوة قد استحكمت بينهما، وأن ولد هلاون قتل في المعركة، وإنهم فوق المائتي فارس، فكتب السلطان إلى النواب في الشام بإكرامهم، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة، وخرج السلطان للقائهم، فكان يوماً عظيماً، ورأوا من كثرة العساكر وكثرة العالم شيئاً بهر عقولهم، وبلغ التتار ذلك فتوافدوا جماعة بعد جماعة، والسلطان يتعمد معهم هذا الإحسان"[١].

وكانت العلاقات قد توطدت بين بيبرس وبركة خان، فلم يكد بيبرس يسمع بإسلام بركة خان حتى كتب إليه يحثه على قتال هولاكو ويرغبه في ذلك[٢].

ويصف صاحب الروض الزاهر سفارة بركة خان[٣] إلى الظاهر بيبرس بأنها كانت مكونة من الأمير جلال الدين بن القاضي، والشيخ نور الدين علي، عن طريق الإسكندرية، ويحملون رسالتين مضمونهما السلام والشكر، وطلب الإنجاد على هلاون (هولاكو)، والإعلام بما هو عليه من مخالفة جنكيزخان وشريعة أهله، وأن كل ما فعله من إتلاف

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٣٧ -١٣٨.

(٢) تزوج بيبرس من ابنة بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، وليس من ابنة بركة خان زعيم القبيلة الذهبية، كما ذكر جمال سرور في كتابه الظاهر بيبرس، ص١١٣، وحسن إبراهيم، ولين بول وغيرهم. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٧، حاشية١.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٦٥؛سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٢٦.

النفوس بطريق العدوان منـه، فقال: "وإنني قد قمت أنـا وإخوتي الأربعة بحربه في سائر الجهات، لإقامة منار الإسلام وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة، وذكر الله والأذان والقراءة والصلاة، وأخذنا ثأر الأئمة والأمة"، ويلتمس إنقاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاون، ويوصي على السلطان عز الدين صاحب الروم ويستمد مساعدته"[١].

ورد السلطان الظاهر بيبرس على رسالة وسفارة الملك بركه خان يخبره بأحوال المسلمين، وبمبايعة الخليفة العباسي، وبأنه أمر بأن يدعى له في خطب مكة، والمدينة المنورة، والقدس، وحمل رسله بالهدايا الثمينة[٢]، وذلك في عام ٦٦١هـ/١٢٦١م، وعندما عاد وفد بيبرس من بلاد الملك بركة خان ذكروا أنهم رأوا في بلاده لكل أمير عشرة مؤذن وإمام، ولكل خاتون مؤذن وإمام، وأن الصغار كانوا يتلقون القرآن العزيز في المكاتب[٣].

وفي أواخر عام ٦٦١هـ/١٢٦١م وصل حوالي ألف وثلاثمائة فأرسل مغولي من المستأمنين، فاستقبلهم السلطان بيبرس وعرض عليهم الإسلام فأسلموا، وتكرر بعد ذلك وصول جماعة منهم[٤].

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٧٠- ١٧١.

(٢) المصدرنفسه، ص ١٣٨- ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٧، والمكاتب هي مدارس لتعليم الصغار.

(٤) المصدر نفسه : ص ١٨٠.

واشتعلت نار الحرب بين بركة خان وعدوه هولاكو، وتوفي هولاكو سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م وخلفه ابنه كتبغا، فقاتله بركة خان حتى هزمه(١).

وتوفي بركة خان عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وخلفه منكوتمر، فواصل سياسة سلفه في نشر الإسلام بين المغول والتحالف مع المماليك ضد مغول إيران، فقام بمحاربة كتبغا بن هولاكو فهزمه وخلص منه الأسرى، مما قوى معنويات المسلمين وشجعهم على الاستبسال في محاربته، ولم يكتف بذلك بل قدم بنفسه ليساعد المماليك في قتاله واستعادة أرض المسلمين من أيدي المغول، وعندما توفي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م خلفه أخوه تدان منكو، الذي دخل في الإسلام، وأرسل يبشر قلاوون بذلك ويطلب منه أن يلقبه بلقب، ويجهز له علم الخليفة وعلم السلطان ليقاتل بهما أعداء الإِسلام، فلبى السلطان قلاوون طلبه سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣ م(٢)

وأرسل له هدية قيمة وأموالاً، ولكن تدان لم يلبث أن تنازل عن عرشه وتزهد وانقطع للعبادة، ومصاحبة العلماء، فخلفه ابن أخيه تولا

---

(١) ذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٥، حوادث سنة ٦٦٣هـ ما نصه: "وفيها جاءت الأخبار بأن سلطان التتار هولاكو قد هلك بمرض الصرع بمدينة مراغة، واجتمع التتار على ابنه كتبغا، فقصده الملك بركة خان فكسره وفرق جموعه"، والأصح أن موت هولاكو كان سنة ٦٦٥هـ وليس ٦٦٣هـ.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج١، ص ٧١٦.

يوغا بن منكوتمر بن طوغان ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، ولكنه ما لبث أن مات غيلة سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م على يد طقطقا (طقطاي) الذي كان على دين المغول، والذي حكم حتى عام ٧١٣هـ/١٣١٤م، فعمت في عهده المجاعة[١].

وأرسل طقطاي هذا إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، فطلب محالفته ضد غازان، فاعتذر إليه حيث أن خدا بنده أخو غازان قد تولى الحكم وعقد معه الناصر صلحاً، وكرر طلبه عام ٧١٣هـ/١٣١٣م عندما هاجمه خدا بنده وهزمه فوعده الناصر باستعادة بغداد وإعادة الخليفة العباسي إليها، وهكذا استمرت العلاقات بين خليفة طقطاي وهو أزبك ٧١٣-٧٤١هـ/١٣١٣-١٣٤٠م، وابن أخيه الذي أسهم في العمل على نشر الإسلام، فصاهره الملك الناصر، ودامت العلاقة جيدة بين المماليك وخانات القبيلة الذهبية فيما بعد[٢].

ثالثاً: أساليب المماليك القتالية والتعبئة العسكرية:

لا شك أن القتال من الفنون التي لها أصولها وقواعدها وخدعها ومكائدها، وقد فطن المماليك منذ بداية حروبهم إلى ذلك، فأبدعوا

---

(١) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص٧٣٨-٩٤٢.

(٢) المصدر نفسه ، ص٧١٦.

وانتصروا، فقد كانت الأساليب التي استخدمها المماليك موجودة من قبلهم[١]،

وطريقة قتال الكراديس[٢] موجودة، وهي ذات فائدة كبيرة في معارك المسلمين، لا سيما أن أعدادهم كانت قليلة، فإذا انسحب أو هزم كردوس لا ينسحب باقي الجيش، وإنما تبقى باقي الكراديس في القتال وهذا يخفف عبء القيادة؛ لأن كل كردوس له قائد خاص، وأما قتال الصفوف ففيه من الخطورة أن الجيش كله يكون عبارة عن صفوف، ومن الصعب الاستمرار في المعركة إذا انسحب صف بأكمله[٣].

وسبب استخدام نظام الكراديس هو أنه لما كثرت جنود الدول خشوا أن يضرب بعضهم رقاب بعض، فجعلوا كل كردوس له قائد وراية، وقد استخدمها الفرس، والروم، والمسلمون، ومن تلك الطريقة يكون الميمنة

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ، ج٤، ص٤٧٤.

(٢) الكراديس: جمع كردوس ومعناها الخيل العظيمة، والكراديس: الفرق منها، وهي كتائب الخيل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص١٩٥. والكراديس هي طريقة قتال فيها يتم تقسيم الجيش إلى مجموعات كثيرة، وكل مجموعة لها قائد، وهي تضمن عدم انسحاب الجيش إذا انهزم كردوساً أو جزء منه، وهي أن يكون كل مجموعة من الجند عبارة عن فرقة مستقلة، لها قائدها، ويتكاتفون حول بعضهم حتى لا يتمكن أعداؤهم منهم. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك،دار الكتب العلمية،بيروت،١٤٠٧هـ، ج٤، ص٤٧٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٢٢٢، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٦.

بكردوس، والميسرة بكردوس، والقلب بكردوس والمؤخرة بكردوس وهكذا[١].

ونظام الكراديس له فائدة عظيمة، وهي عدم قدرة الأعداء على تحديد عدد الجيش المكردس[٢].

وقد تجلت الموهبة القتالية المملوكية في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م التي بلغ فيها عدد الجند المماليك خمسين ألفاً، والتتار مائة ألف، وحينما كاد التتار ينتصرون حيث هزموا ميمنة الجيش المملوكي، استطاع المماليك تغيير نتيجة المعركة بفضل نظام الكراديس، وبذلك تثبت الخطط المملوكية في أساليبها قيمة تقسيم الجيش إلى فرق[٣].

رابعاً: المتطوعين في الجيش المملوكي:

إضافة إلى المقاتلين من الفرسان والمشاة والنظاميين والمسلحين في ديوان الجيش المملوكي، الجند الإقطاعيين التابعين للأمراء، إضافة إلى

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص٢٧٢-٢٧٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٩٣.

(٢) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية الكبرى، صححه: الحافظ عبدالعليم خان، بإعانة وزارة المعارف الحكومية العالية الهندية، حيدر أباد، ١٩٧٨م، ص٣٦٧.

(٣) اليافعي: مرآة الجنان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٩١.

أجناد الحلقة والمماليك السلطانية، وفرسان الأمراء، ثم متطوعين[١] مقاتلين، وخاصة من أهل الشام، ومن المخلصين والمحبين لفريضة الجهاد، كانوا دائما على استعداد لتقديم التضحية، وقد عرف من المتطوعين المساندين للمماليك في حربهم ضد المغول آل مهنا[٢]، وآل فضل[٣]، وآل مرة[٤]، وهذه القبائل كانت تقيم بين بادية الشام والعراق والجزيرة، ومنذ اللحظة الأولى لحروب المماليك انضمت قوافل

(١) متطوعون: الفعل منها تطوع أي تبرع، والمطوعة الذي يتطوعون بالجهاد. انظر: الرازي: مختار الصحاح، ج١، ص١٦٨؛ ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٢٤٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ٤٣٦.

(٢) آل مهنا: قبيلة عربية، ينسبون إلى طيء، ويقال: إنهم ينتسبون إلى ربيعة، اشتهروا بتربية الخيول العربية الأصلية، أقاموا علاقات مع سلاطين المماليك الذين أكرموهم مقابل جلب الخيول منهم ومشاركتهم في الحروب إلى جانب المماليك. ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٦٧.

(٣) آل فضل: كانوا مقيمون بحوران بعد أن طردهم آل مرد من حمص ونواحيها، تقربوا إلى سلاطين المماليك فأقطعوهم الإقطاعات فاستظهروا بها. ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٤٩٨.

(٤) آل مره: هي إحدى القبائل العربية والتي تنتقل من مكان إلى مكان بين الجزيرة وأطراف العراق وبادية الشام، وهي التي اشتهرت بالحرب التي قامت بينها وبين بني تغلب قبل الإسلام. ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٥١٢؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ،دار صادر،بيروت،(د.ت)، ج٢، ص٢٧؛ بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية، ص٩٩.

المتطوعين لملاقاة الأعداء، فالمسلمون لا يقبلون إلا المشاركة، وبذل النفس والمال طمعاً في مرضاة الله عز وجل[١].

وتجلى دور إمارة آل فضل السياسي في العصر المملوكي عندما اختار السلطان قلاوون أميرها عيسى بن مهنا لقيادة ميمنة جيشه في الحرب التي خاضها ضد المغول بظاهر حمص في رجب سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وأبدى هذا الأمير بسالة فائقة في هذا القتال حينما اعترض بعربانه جيش المغول على حين غفلة[٢].

وجرح قائدهم منكو تمر[٣] فلاذا بالفرار، وولى المغول الأدبار إلى العراق[٤] وعاد السلطان إلى دمشق منتصراً، وأسرى المغول يساقون بين يديه[٥].

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م١، ص٣٦٠.

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٩٥.

(٣) منكوتمر بن هولاكو: بن جنكيز خان، مات سنة ٦٨١هـ. الذهبي: العبر في خبر من عبر، ج٣، ص٣٤٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ج٥، ص٣٧٥.

(٤) أبو الفداء: المختصر في تاريخ اهل البشر ، ج٤، ص١٥؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج١، ص٩٥؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٦٩٣-٦٩٤.

(٥) أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشر، ج٤، ص١٥؛ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهره، ج٧، ص٣٠٦.

وتعد معركة حمص من المعارك الحاسمة في تاريخ الجهاد ضد المغول؛ إذ لو أحرز هؤلاء النصر في تلك المعركة لوقعت مصر نفسها في أيدي المغول[1].

ويتضح مما تقدم أن عرب الشام في ظل حكم إمارة آل فضل كان لهم مشاركة فاعلة ومؤثرة في جهاد المسلمين في أثناء العصر المملوكي ضد المغول والصليبيين؛ حيث وقفوا إلى جانب أمراء الشام الآخرين لصد غارات هؤلاء الأعداء، وكانوا سنداً قويًّا للجيش الإسلامي في أخطر معركتين خاضهما المسلمون في ذلك الوقت، وهما: معركة عين جالوت، ومعركة حمص، وهما من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي.

خامساً: الخطط العسكرية وإدارة المعارك:

إن الحديث عن الخطط وإدارة المعارك لا ينفصل عما سبق الحديث عنه، فهي بالتأكيد تعتمد على الفرق الاستطلاعية والاستخبارية والبريدية، وكل ما يصل من معلومات، كما أنها تعتمد على الجيش بأقسامه، وحجمه، والفرق الملحقة به، والمتطوعين، فكل ما سبق الحديث عنه وله علاقة مباشرة بوضع الخطط وإدارة المعارك، وفي الحقيقة إن الخطط العسكرية في العهد المملوكي لم تكن تختلف عما سبقها من

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام،دار النفائس،بيروت،١٩٩٧م، ص١٩٣.

العهود الإسلامية؛ وحيث إن الدين الإسلامي بين ما على الدولة من ضرورات تجهيز الجيش، والإدارة الناجحة للجيش كانت منذ عهد الرسول عليه السلام؛ حيث تميزت الخطط العسكرية بأنها كانت سر الانتصارات والفتوحات، فأرض الشام مسرح العمليات العسكرية كانت نفس المسرح للعهدين الأيوبي والمملوكي، بل وإن العدو نفسه وهم الصليبيون والمغول الذين لم تتغير طرقهم في القتال وبناء القلاع ومهاجمة المسلمين، فقد تعود الجيش الإسلامي في العهد المملوكي على المنطقة والأعداء،(١) وكان الاحتكاك مباشراً بخلاف ما سبق من العهود الإسلامية، وأن وضع الخطط العسكرية كان على يد سلاطين المماليك من خلال مجلس شورى ينعقد كلما دعت الضرورة، وكان السلطان وكبار الأمراء هم يقررون الخطط(٢).

مثلما فعل قلاوون فقد اتضحت إدارة المعارك بشكل أكبر في عهده؛ حيث كان يعقد مجلس شورى مع أمرائه قبل خوض أي حرب، مثلما فعل في أحدى استعداداته لحرب المغول، فقرر مجلس الشورى أن يقاتلوا بالقرب من دمشق لاحتمال عدم النصر، وقد أدلى كل أمير بدلوه، فمنهم من اقترح تقسيم الجيش إلى قسمين يتقدم قسم ويتأخر قسم فإن

---

(١)ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج٧،ص١٠١.المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ص٤٢٨.

(٢) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٠١؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٢٨.

خذل الأول أردفه الثاني، فرد أمير آخر أن ذلك خطأ وقال: "إذا أخذنا الجملة وأردنا كسرها نشاب، وإذا سللناها سهماً سهماً وكسرناها فإنها تتكسر"[١].

وعلى ذلك نقول: إن الخطط العسكرية وضعت نصب أعينها عدة مبادئ اعتمدت عليها في حروبها منها:

(١) التعرف على أخبار العدو قبل المعركة من خلال الفرق الاستطلاعية.

(٢) الخديعة في الحرب.

(٣) الاستعدادات المتعلقة بالجيش المملوكي وتقسيماته.

وكانت النظم العسكرية المملوكية تسير في خطين متوازيين، ويبني خطته بناء عليهما وهما:

نقاط القوة من خلال ما يملك النظام العسكري المملوكي من مقومات الجندي المملوكي واستعداداته وتدريباته، أو العتاد والأسلحة بأنواعها الوقائية، أو الفردية، أو الجماعية وتنظيم ذلك كله.

نقاط الضعف، والتي كان يتم تحاشيها من خلال بث الجواسيس في صفوف الأعداء، والحصول على معلومات متعلقة بمعرفة قدرات العدو،

---

(١) العسقلاني، شافع: الفضل المأثور، ص٦٧؛ شلبي، أحمد: الجهاد والنظم العسكرية، ص٨٨.

وهذا ما حصل مع السلطان قلاوون في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م(١).

سادساً: دور العلماء في معركة حمص:

وأصبح ذلك سائداً بين عامة الناس؛ حيث ورد أن أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى أن لقي التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم، ويبتهلون إليه، وخرج الناس إلى الجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهال إلى الله عز وجل في تلك الأيام، لا يفترون عن ذلك حتى ورد عليهم خبر النصر؛ حيث حلَّت الهزيمة ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق بعد أن قتل منهم عدد كبير(٢).

ومما لا شك فيه أن الاستعداد المعنوي والروحي لدى المسلمين كان كبيراً؛ حيث الدعاء والتضرع والابتهال، مما يقوى العزائم ويدعو للثبات والتضحية، والناس في هذا تبع للائمة والخطباء في المساجد، ويضاف إلى ذلك مشاركة أهل العلم في الجهاد في المعارك، وممن شارك في معركة حمص الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالله اليونيني ٦٠٤هـ-٦٨٠هـ

---

(١) العسقلاني: الفضل المأثور، ص٦٧؛ شلبي أحمد: الجهاد والنظم العسكرية ، ص٨٨؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٤٣؛ عبدالمنعم صبحي: الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، دار العربي ،القاهرة،١٩٩٤م،ص٣٢.

(٢) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٥.

الملقب بشيخ الإسلام وأسد الشام[١]، فقد حضر مصاف حمص بين المسلمين والتتار، وقاتل قتالاً شديداً، واستشهد في تلك الموقعة، وشارك أيضاً في المعركة شافع[٢] بن علي بن عباس الكناني ٦٤٩-٧٣٠هـ، وقد أصيب بسهم في صدغه عمي على أثره، وقد اعتكف في بيته بعد ذلك، ووقف وقته على تأليف الكتب، وكان يقتني من الكتب الشوارد، ولديه مكتبة حافلة بالكتب[٣].

المبحث الثاني: نتائج معركة حمص:

أولاً: تحالف المماليك مع المغول:

نتيجة لتولي أحمد تكودار العرش المغولي مالت سياسة المغول الإيلخانيين باتجاه السلم، والوفاق ونبذ الحرب، والعمل على إزالة سوء التفاهم بينهم وبين المماليك، فأرسل الإيلخان أحمد وفداً إلى السلطان قلاوون في شهر جمادى الآخر عام ٦٨١هـ/شهر أيلول عام ١٢٨٢م،

---

(١) كان رجلا كثير التعبد، سليم الصدر، كريم الأخلاق، لين الكلمة، متواضعاً، ولد بظاهر بعلبك سنة ٦٠٤هـ، واستشهد في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص١١١.

(٣) شافع بن علي بن عباس الكناني العسقلاني ثم المصري،كاتب مؤرخ وولد سنة ٦٤٩هـوتوفي سنة ٧٣٠هـ وروى عن الشيخ جمال الدين بن مالك وغيره و وروى عنه اثر الدين ابو حبان وعلم الدين البرزالي وغيرهم . الكتبي:فوات الوفيات ، ج٢،ص٩٣. ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج٧،ص٣٠٥.

(١) ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٠٥.

ضم شيخ الإسلام كمال الدين عبدالرحمن الرافعي، والعلامة قطب الدين الشيرازي، قاضي مدينة سيواس، وبهاء الدين أتابك مسعود صاحب سلاجقة الروم، وحمل أعضاء الوفد رسالة لإبلاغها للسلطان باعتناق الإيلخان أحمد الدين الإسلامي، وشرح أهدافه السياسية، واطلاعه على جهوده الآيلة إلى إحياء الشريعة الإسلامية في المجتمع المغولي خاصة والعالم الإسلامي عامة، مثل الإصلاحات الخاصة بشؤون الأوقاف، وإيصال عوائدها إلى مستحقيها، وتيسير سبل الحج، ورعاية شؤون الحجاج، وإظهار رغبته في أن يظل بسلام مع جيرانه المسلمين، والعمل على توحيد كلمتهم، وأنه عارض قرار القوريلتاي[1]، بشأن تسيير حملة إلى بلاد الشام، وهي الحملة التي كان قد تقرر القيام بها في عهد أخيه الراحل كتبغا للثأر من المماليك، وانطلاقاً من اعتناقه الإسلام، فإنه وضع الحراس في الطرق كي يستطيع التجار أن يتنقلوا بحرية تامة بين البلدين، كما أخبره بأنه قبض على جاسوس مملوكي ولم يقتله؛ بل أعاده سالماً كدليل على الأخوة والمحبة؛ لأنه بعد الاتفاق واجتماع الكلمة لا

(١) القوريلتاي: هو بمثابة مجلس شورى يضم الأمراء وقواد الجيش المغولي ،يتبادلون فيه وجهات النظر بخصوص أختيار الخان الجديد.كذلك كانت تعرض على المجتمعين في القورلتاى خطة الغزو والبلدالمقصود تدميرها أو الهجوم عليها ويشترك الجميع في المناقشة وبحرية تامه واتصفت خطط المغول الحربية التي وضعت في القوريلتاى بالدقة والعنف. المفضل ابن ابي الفضائل:النهج السديد ص١٤٥ ،فؤاد عبدالمعطي الصياد: الغول في التاريخ،ص١٦٦.

حاجة إلى الجواسيس ولا إلى غيرهم، وتوقع بالمقابل أن يرسل السلطان قلاوون إلى تبريز حتى تزول أسباب العداوة والبغضاء المتأصلة بين المماليك والإيلخانيين[١].

ورد قلاوون برسالة مؤرخه في شهر رمضان عام ٦٨١هـ/شهر كانون الأول عام ١٢٨٢م، رحب فيها بدخول الإيلخان أحمد في الإسلام، وأثنى على جهوده التي يبذلها في تطبيق أحكام الشريعة، وأعلن عن استعداده للتعاون معه لخدمة الإسلام والمسلمين وتيسير سبل التجارة، وحماية التجار[٢]، إلا أنه وقف عند هذا الحد، ويبدو أن المفاوضات من أجل عقد معاهدة صلح وتحالف بين الطرفين قد تعثرت؛ لأن المماليك لم يبتهجوا لهذا التطور السابق لأوانه، فطلبوا ضمانات خاصة، بالإضافة إلى أنهم أدركوا أن رجال الطبقة الحاكمة والمتنفذة في دولة المغول الإيلخانيين، ليسوا متحمسين للاقتداء بسلطانهم، كما أن الأمير ارغون ابن كتبغا، كان يطالب بالعرش منذ وفاة والده، وكان يتمتع بدعم وتأييد الجماعات البوذية المتطرفة، وبشكل عام كان إسلامه سبباً لانتقادات شديدة بين صفوف المغول الإيلخانيين، خاصة من جانب الأمير أرغون وجماعته الذين تمكنوا أخيراً من إزاحته عن العرش والقضاء عليه في

---

(١) راجع نص كتاب عند القلقشندي: صبح الاعشى ،ج٨، ص٦٦-٦٩. النويري:نهاية الارب في فنون الادب، ج٣١، ص٨٩-٩٠.

(٢) راجع رد السلطان قلاوون في .القلقشندي:صبح الاعشى، ج٧، ص٢٥٧-٢٦٢.

شهر جمادى الآخرة عام ٦٨٣هـ/شهر آب عام ١٢٨٤م، وتعيين الأمير أرغون إيلخاناً ٦٨٣هـ-٦٩٠هـ/١٢٨٤-١٢٩١م[١].

وهكذا أدى حذر المماليك من حكم أحمد تكودار غير المستقر إلى عدم التعاون المثمر بين الدولتين، لكن ساد الهدوء جبهات القتال بينهما، ولم يذكر المؤرخون حصول أي صدام في عهده، واضطهد الإيلخان أرغون المسلمين في بلاده؛ لأنه كان لا يثق بهم، وكان عهده عهد محنة لهم، فقد ذاقوا الأمرين على أيدي البوذيين المتنصرين، وتعرضوا للضغط والظلم الذي لم يشهدوه في عهد كتبغا، فأبعدهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه، وكان هذا الإيلخان تعوزه المقدرة على فهم الطاقة المالية لبلاده، فقد رغب في الحصول على أكبر كمية من الأموال من شعبه بشكل خيالي، فعهد بشؤون الجباية والضرائب إلى طبيب يهودي هو سعد الدولة، وقد تمتع بثقته واحترامه، فأطلق له العنان، وقد بدأ هذا الوزير بظلم الأقاليم الإسلامية الخاضعة للحكم المغولي إلى درجة عالية، فكاد للإسلام، وتآمر على المسلمين، وحط من شأنهم، وابتز الأموال منهم[٢].

---

(١) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، دمشق، دار حسان، ١٩٨٢م، ص٧٠.

(٢) شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي ، ص٧٠.

كان لهذه السياسة الخرقاء أسوأ الأثر في نفوس المماليك، فعادت العلاقات بين الطرفين إلى سابق عهدها من العداء، لكن الجبهات العسكرية ظلت هادئة نسبيا، فلم تشهد اصطدامات تذكر، ولعل مرد ذلك إلى انهماك الطرفين بأمور أخرى، وحاجتهما إلى الهدوء على جبهة بلاد الشام.

فيما يتعلق بالمماليك:

(١) انهمك المماليك بالخلافات الداخلية التي نشبت بينهم لاسيما بين قلاوون والمماليك الظاهرية، بالإضافة إلى عصيان الأمير سنقر الأشقر، وثورات الأرمن.

(٢) أراد المماليك التفرغ لمهمة طرد الصليبيين من بلاد الشام أولاً، طالما كان الخطر المغولي لا يتعدى المناطق الحدودية.

أما فيما يتعلق بالإيلخانيين:

(١) حاول أرغون التقرب من القوى المسيحية الشرقية والغربية؛ إلا أنه لم يتلق منهم سوى الوعود.

(٢) كان أرغون منهمكاً في جمع المال وتكديسه، وهي غريزة اتصف بها، ورعاية العنصرين المسيحي واليهودي، والاشتغال بالكيمياء وغيرها.

(٣) انقطع أرغون عن الاتصال بالعالم الخارجي تاركاً الأمور تجري على هوى وزيره سعد الدولة اليهودي[١].

ثانياً: ارتفاع قيمة مدينة القاهرة:

ارتفعت قيمة مدينة القاهرة المصرية ارتفاعاً بالغاً بعد قيام دولة المماليك وانتصارهم في معركة عين جالوت ثم حمص، وخاصة بعد التدمير الذي لحق ببغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على أيدي التتار، وبعد سقوط قرطبة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م في أيدي الصليبيين الإسبان وأصبحت القاهرة قبلة العلماء والأدباء، ونشطت الحركة العلمية جداً، ولعب الأزهر دوراً مهماً في حمل لواء الدفاع عن الدين، ونشر الدعوة.

ثالثاً: المغول والتتار يدخلون في الإسلام:

فقد رأى كثير من التتار دين الإسلام عن قرب، وقرؤوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه، فأعجبوا به إعجاباً شديداً، وخاصة أنهم كعامة البشر يعانون من فراغ ديني هائل، فليس هناك تشريع يقترب أو يحاول الاقتراب من دين

---

(١) الصياد، فؤاد عبدالمعطي: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، أسرة هولاكو خان، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة الكويت، ١٩٨٧م، ص١٩٩-٢٠٠.

الإسلام، ومن اقترب منه وبحث فيه فإنه لا بد أن يرتبط به إن كان صادقاً في بحثه، وطالباً للحقيقة فعلاً[1].

رابعاً: عودة الوحدة بين مصر والشام:

تمت الوحدة بين مصر والشام، وكوّنا معا التحالف الاستراتيجي الصلب الذي يمثل حاجز صد رائع ضد الهجمات الأجنبية، فمصر والشام بما فيها فلسطين تمثلان قلب العالم الإسلامي استراتيجياً وسياسياً وجغرافياً وثقافياً وتاريخياً، واتحاد مصر مع الشام تم برجوع الأمير سنقر الأشقر وانضمامه مع قوات السلطان قلاوون، فمثلوا عامل أمان كبير لكل المنطقة، كما أنه قلل كثيراً من أطماع الطامعين في العالم الإسلامي، وخاصة أن معظم أعداء الإسلام كثيراً ما كانوا يركزون تفكيرهم على منطقة مصر والشام، وذلك لأسباب دينية واقتصادية وعسكرية، وبذلك يتضح أنه لا نجاة لهذه المنطقة إلا بوحدة شاملة بين كل الشام بما فيها سوريا وفلسطين والأردن ولبنان، وبين مصر، وهذا ما فعلته دولة المماليك الناشئة[2].

خامساً: تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام:

---

(١) رجب محمد عبدالحليم: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، القاهرة، (د. ت)، ص١٧٥-٢٢٦.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الامصار ، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥م؛ج٣،ص٣١٠. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٧٢٧-٧٩٣.

ولما زالت مخاوف السلطان قلاوون من جهة المغول وحلفائهم، عوَّل على إتمام مشروع تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، وبدأ في استرداد بقية المدن الإسلامية مثل طرابلس، التي استردها بعد حصار دام ٣٤ يوماً، وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة ٦٨٨هـ/مايو ١٢٨٩م، وأعيدت طرابلس إلى السيادة الإسلامية بعد أن ظلت ما يقرب من قرنين من الزمان في قبضة الصليبيين(١).

كانت شخصية السلطان قلاوون القوية لها أثر كبير في تخوُّف الصليبيين منه، ومحاولة إرضائه دائماً، وعدم إثارة غضبه، وتجلى هذا الأمر عندما قام بعض الصليبيين في عكا بقتل بعض من التجار المسلمين إثر خلاف حدث بينهم، وكان بين المسلمين والصليبيين في عكا هدنة تنص على عدم التعرض للتجار والمسافرين، إلا أن هذا العمل نقض شروط الهدنة، وطلب السلطان من الصليبيين تسليم من قاموا بقتل المسلمين لمعاقبتهم، إلا أنهم رفضوا بحجة أنهم لم يتمكنوا من القبض عليهم(٢).

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ص٢٣٣؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٧٧-٨١؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٨، ص١٧-١٨؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص٧٢٧-٧٢٨.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص١٠١؛بيبرس المنصوري: التحفة الملوكية،ص٣٢٣. ابن الفرات:تاريخ ابن الفرات ، ص٨٠؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٧٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٤٠١.

ولذلك استعد السلطان قلاوون لحصارهم ومحاربتهم، رغم تقديم الأعذار له عما حدث، إلا أنه لم يقبل عذرهم بسبب نقضهم شروط الهدنة الخاصة بتأمين أرواح التجار بين الجانبين، وأثناء تجهيز السلطان قلاوون الجيش والسير به إلى عكا، توفي في السادس من ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/العاشر من نوفمبر ١٢٩٠م[١].

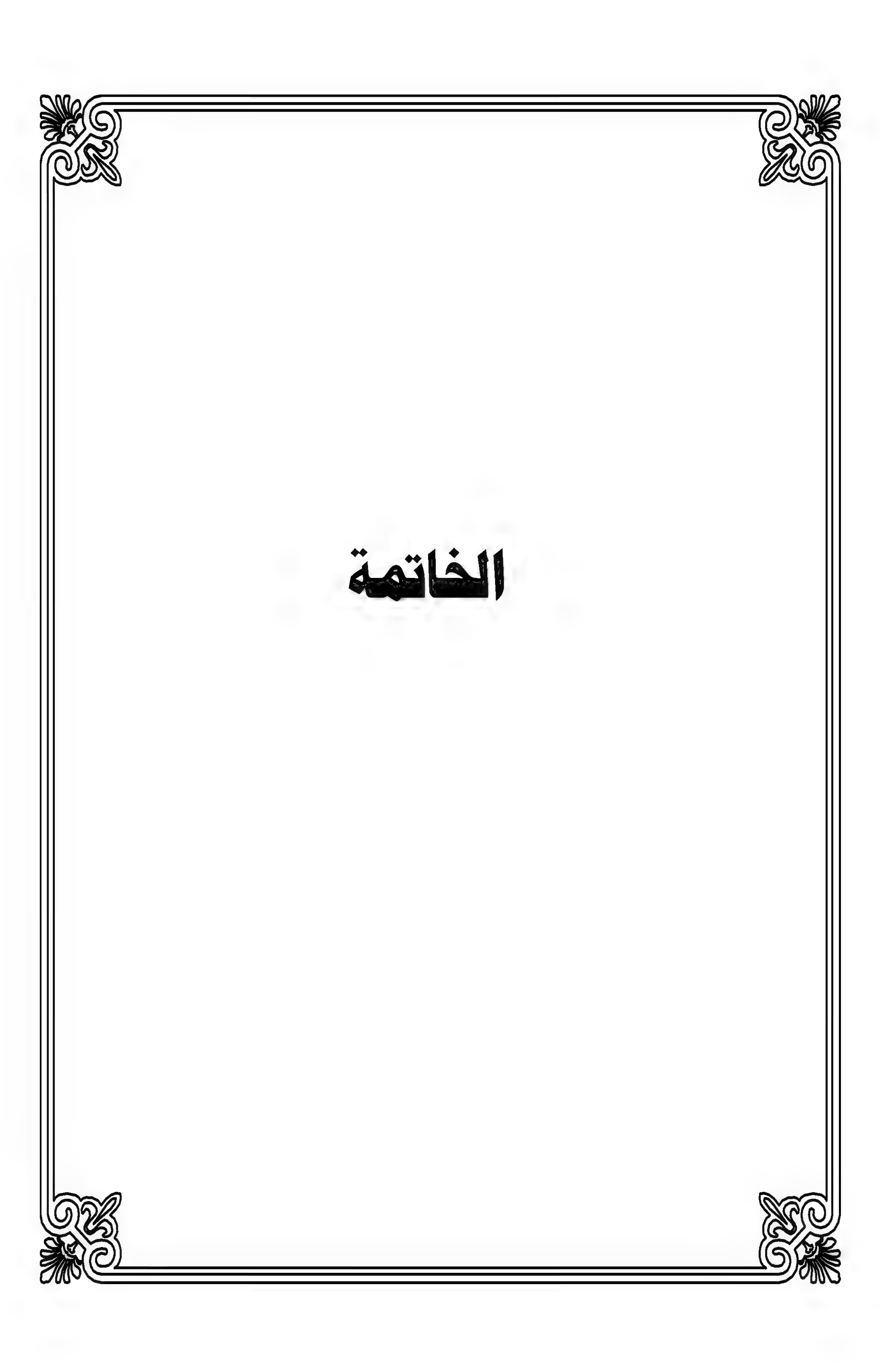
وخلفه ابنه الأشرف خليل الذي قرر مواصلة رغبة والده في مهاجمة عكا، ورفضه جميع العروض التي تقدم بها الصليبيون لثنيه عن محاصرتهم ومهاجمتهم، وبالفعل تم حصار الصليبيين في عكا حصاراً قويَّاً، حتى ضعفت قواهم وخارت أمام جحافل الجيش الإسلامي الذي تمكن من دخول عكا في ١٧ من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ/مايو ١٢٩١م، وهرب من استطاع الهرب من الصليبيين الذين كانوا في عكا عن طريق البحر، وقتل من قتل منهم، وأُسر من أُسر، وبعد استرداد عكا قام الأشرف خليل باسترداد باقي القلاع الإسلامية التي كانت في حوزة الصليبيين، وبذلك نجح المماليك في تطهير بلاد الشام من دنس الصليبيين بعد فترة احتلال دامت ما يقرب من قرنين من الزمان، وعادت هذه المدن إلى حوزة المسلمين، وفشلت السياسة الصليبية في تحقيق حلم

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ٢٨٩ص؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص١٣٨-١٦٥-١٨٢؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الادب ، ج٢٩، ص٥٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢٥.

البابوية، وانكسر الحلم الصليبي أمام قوة وتماسك ووحدة المسلمين في الشام ومصر بالبقاء في المشرق الإسلامي، وأصبح القادة المسلمون الذين كان لهم الدور الكبير في محاربة الصليبيين من أشهر القادة المسلمين في العصر الوسيط، وسوف يعيد التاريخ نفسه يوماً من الأيام، ويتم تحرير بيت المقدس من الصهاينة المحتلين، كما فعل أسلافنا رحمهم الله في تلك الفترة، حيث سطروا أروع الملاحم التاريخية والبطولية أمام الصليبيين، إلى أن تم تطهير البلاد الإسلامية منهم، وأصبحت أحلامهم في مهب الريح أمام إصرار وعزيمة المسلمين[١].

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٢١٢؛ بيبرس المنصوري:التحفة الملوكية، ص٣٣٣. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٧٦٤-٧٦٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥-٦.



الخاتمة

الخاتمة

بحمد الله وتوفيقه انتهى موضوع البحث الذي تناول دراسة شاملة ومتكاملة لموضوع معركة حمص سنة ٦٨٠هـ /١٢٨١م وقد رأينا بلاد الشام والتي كانت هدف هولاكو بعد دخوله مدينة بغداد، فقد أوضحت الدراسة موقف القوى الإسلامية وغير الإسلامية من ذلك الغزو، فقد كان من نتائج سقوط بغداد في أيدي المغول أن عم الرعب والخوف الحكام المسلمين والذين أخذوا يتسابقون على معسكر هولاكو لتقديم فروض الولاء والطاعة مقابل إبقائهم على ولاياتهم.

أما عن موقف مملكة أرمينية الصغرى من الغزو المغولي لبلاد الشام فقد أوضحت الدراسة أن ملوك أرمينية عندما علموا باقتراب المغول من الشرق الإسلامي هللوا لهم ورأوا فيهم القوة الضاربة التي تستطيع أن تقضي على الإسلام والمسلمين ، وتقوى الوجود المسيحي في تلك المناطق خاصة وأن المغول في ذلك الوقت لا زالوا يدينون بالوثنية الأمر الذي جعل هؤلاء المسيحيين ينفرون إلى هذه القوى على أنها مادة خام يسهل تشكيلها في قالب مسيحي، وزاد قوة هذا الطمع ظهور تيارات واتجاهات مسيحية بين صفوف المغول من ذلك أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين شرقيتين عجلتا على مؤازرة المسيحيين ومناصرتهم في كل المناطق التي خضعت للسيادة المغولية.

أما بالنسبة للقوى الصليبية الغربية التي كانت تتمركز وقتئذ على الشريط الساحلي لبلاد الشام فقد وقفت موقف المتردد من الهجمات المغولية على بلاد الشام حتى أن ملوك بوهيند السادس أمير أنطاكية وتأييده لحركة الغزو المغولي على بلاد الشام والذي لم يكن بوصفه أميراً كاثوليكياً وإنما لكونه زوج ابنه هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى وحليفه وصديقه قد ضايق معظم الصليبين ببلاد الشام، وخاصة أهل عكا وقد تبين لنا أن عدم تعاون الصليبين الغربيين راجع إلى أسباب عدة منها: انشغالهم بمنازعتهم الداخلية مما لم يترك مجالاً للخوض في ميدان السياسة الخارجية واستقلال الظروف التي ألمت بالعالم الإسلامي من جراء الغزو المغولي، كما لا يستبعد أن يكون لاستياء التجار البنادقة في عكا من حركة المغول لم ترتب عليها من خلل اعترى طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب.

هذا بالإضافة إلى أن العلاقات التجارية بين البنادقة والمماليك في مصر كانت طيبة لذا حرص البنادقة على ألا يحدث ما يعكر صفو تلك العلاقات التي كانوا يحصلون من ورائها على مكاسب مادية كبيرة.

كما برهنت الدراسة على أنه كان هناك سبب آخر أهم ألا وهو استياء المسيحيين الشرقيين دون الغربيين وتخوف الغربيين من الوقوع تحت رحمة الكنائس الشرقية حتى أن مؤرخاً صليبياً معاصراً هو جوانفيل ذكر أن صليبي الشام أرسلوا في ذلك الوقت إلى الغرب الأوربي

يطلبون تسيير حملة صليبية ليس ضد المسلمين هذه المرة إنما ضد المغول وحلفائهم المسيحيين الشرقيين.

وتوصل البحث إلى نتيجة هامه وهي أن موقف الصليبيين هذا هو الذي مكنهم من البقاء مدة أطول في بلاد الشام إذ لو تحالف الصليبيون المغربيون مع المغول لحققوا جزءاً بسيطاً من أهدافهم وهو الانتقام والتشفي من المسلمين في تلك المناطق ولكن ذلك التحالف كان سينعكس على وضعهم السياسي هناك إذ أنهم كانوا بلا شك سيصبحون عبارة عن ولاية من ولايات المغول حالهم حال من سبقهم من المسيحيين الذين تحالفوا مع المغول، هذا بالإضافة إلى أن تبعيتهم للمغول الذين عرفوا بمحاباة المسيحيين الشرقيين كان سيؤدي إلى أضعاف مركز الكنيسة الغربية في بلاد الشام.

وكان من نتائج اكتساح المغول وحلفائهم بلاد الشام أن عم الرعب والخوف سائر أرجائه فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية، وقد تغرس في داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الأهوال بسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك أن السبيل الوحيد لإنقاذ ما تبقى من العالم الإسلامي من الغزو المغولي هو البحث عن قيادة قوية تترجم نواياهم بالعمل على تنظيم جموع المسلمين وبعث روح الجهاد المقدس في نفوسهم لدرء العدوان المغولي الذي استشرى خطره وبات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك، والواقع أن الأراضي

المصرية في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبئ بظهور قوة جديدة تنقذ العالم الإسلامي من هذا الخطر، فالسلطان قلاوون اعتلى عرش الدولة المملوكية الفتية لمواجهة الأخطار والتحديات التي بانت تهدد دولة المماليك في مصر ومن هذا خلص البحث إلى نتيجة هامة ذلك أن ملوك المماليك الإسلامية في المشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي أضحت على يقين تام بأن دولة المماليك الفتية في مصر هي القادرة على حمل لواء الجهاد الإسلامي للنهوض بالعالم الإسلامي من وهدته العميقة والتي سبق بها قلاوون السلطان قطز والظاهر بيبرس، وذلك لتوفير العنصر البشري فضلاً عن مواردها الطبيعية الضخمة وابتعاد حكامها عن الإثرة وحب الذات.

وعند دراسة حوادث معركة حمص التي جاءت كرد فعل على التلاحم المغولي المسيحي والذي ترتب عليه تطاول المسيحيين على المسلمين والاعتداء على مقدساتهم تبين بوضوح ما كان يتمتع به السلطان المملوكي قلاوون من مقدرة عظيمة في ميادين الإدارة والسياسة والحرب، يدلنا على ذلك الخطط السياسية والحربية التي نفذها قلاوون بإحكام للتمهيد لضرب المغول في معركة حمص فقد بذل قصارى جهده لتكوين قوة إسلامية تؤمن إيماناً تاماً بفكرة الجهاد ضد أعداء الإسلام الذي حرص السلطان قلاوون منذ بداية عهده على غرسه في نفوس رجاله، ومن ثم اختيار المكان والزمان المناسبين الذي يستطيع

جيشه فيه ضرب المغول ضربة قوية لا تقوم لهم بعدها قائمة، وبالفعل فقد تمكنت جيوش المماليك بفضل هذا كله من تحقيق ذلك الانتصار العظيم في معركة حمص.

وقد أثبتت الدراسة أن ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المماليك في معركة حمص وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب ولا في تاريخ الأمة الإسلامية بمفردها وإنما في تاريخ العالم بأسره إذ برهنت الدراسة على أن ذلك الانتصار العظيم لم ينقذ العالم الإسلامي وحده ؛ بل أنقذ العالم الأوربي والمدينة الأوربية من شر ذلك الغزو، فلو تم للمغول اكتساح الأراضي المصرية والنفاذ إلى الشمال الأفريقي لتمكنوا بكل سهولة من سلوك الطريق التقليدي إلى أوروبا عبر صقلية وجبل طارق، لذا فإنه لا يختلف اثنان في أن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة فهي لم تكن حرباً بين شعوب راقية متحضرة تحكمها القوانين والقواعد والأعراف؛ بل كان أحد طرفيها وهم المغول عبارة عن شعب بدائي بربري متوحش سفاك للدمار مخرب لكل معالم الحضارة.

وثمة أهمية أخرى هي أن انتصار المماليك في هذه المعركة وحصول المماليك بموجبه على ما كان ينقصهم من مجد سياسي كان لابد منه لتثبيت أركان دولتهم الفتية، فقد نسي الناس أصلهم غير الحر

وتناسوا أنهم اغتصبوا العرش من سادتهم الأيوبيين ولم يعد المسلمون يذكرون عنهم سوى شيئاً واحداً هو أن المماليك أنقذوا العالم الإسلامي من خطر الغزو المغولي المدمر وإن بقاءهم في الحكم ضرورة لابد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى.

كما أثبت الدراسة أن هذا الانتصار العظيم كان عاملاً من عوامل انتشار الإسلام وقتئذ، فقد بعث روحاً جديدة من المسلمين لاسيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يصمدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في فارس، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي حتى كللت مساعيهم بنجاح باهر أثمر اعتناق المغول في غرب أسيا للدين الإسلامي، بعد أن ثبت لهم صلاحية لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله، ولبعده كل البعد عن الخلافات الجوهرية التي ابتلى بها الدين المسيحي وذلك لكون الإسلام خاتم الأديان تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وبرهنت الدراسة على أن انتصار المماليك في معركة حمص كان له دور كبير في إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام، فالذي لاشك فيه أن الصليبين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك النصر العظيم الذي حققه المسلمون ضد المغول في هذه المعركة فسارع زعماؤهم بعد أن أدركوا أن نهايتهم آتية لا محالة بالتقرب إلى السلطان

بيبرس وطلب مراحمة فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه، وقام في الوقت بإبرام سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبين في بلاد الشام، وتمكن بفضله من إحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أي معونة خارجية الأمر الذي عجل باقتلاع جذورهم نهائياً من ساحل بلاد الشام.

وبرهنت الدراسة أيضاً على أن نتائج معركة حمص لم تقتصر على النواحي السياسية ؛ بل تعدت إلى النواحي الحضارية حيث جُنبت مصر ويلات الغزو المغولي المدمر، ولم تتعرض القاهرة لما تعرضت له بغداد ودمشق وغيرهما من مدن فارس والعراق والشام من الخراب والدمار الذي عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية وبقيت القاهرة مكاناً هادئاً آمناً يهرع إليه العلماء والأدباء والفنانون حتى اكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية التي برهنت عما اكتسبه المماليك المسلمون من هيبة وقدرة في شؤون السياسة والحرب اتضحت من علاقاتهم الخارجية الدولية الواسعة الانتشار وفي إصلاحاتهم وإدارتهم الداخلية الحازمة.

وعند دراسة موضوع جهاد السلطان الظاهر بيبرس ضد المغول والصليبين أوضحت الدراسة أن الصليبين في ساحل بلاد الشام شعروا بحرج موقفهم بعد انتصار المسلمين على المغول في عين جالوت

فعاودهم الأمل في الاتصال بالمغول وطلب التحالف معهم حلماً في أحد أمرين إما تشجيع المغول في الاستمرار في ميدان الصراع لتخفيف الوطآت على أنفسهم أو محاولة إحياء مشروع التحالف الصليبي المغولي الذي بات ضرورة قصوى تقتضيها الأوضاع السيئة التي آل إليها الصليبيون والمغول على حد سواء عشية ذلك النصر العظيم الذي حققه المماليك بكسر المغول وطردهم من بلاد الشام والذي أدى بدوره إلى إضعاف بقايا الوجود الصليبي في ساحل بلاد الشام بعد تضييق الخناق عليهم، ولكن السلطان الظاهر بيبرس واجه ذلك التقارب الصليبي المغولي الذي كان نجاحه سيؤدي إلى تورط جيوش في القتال على جبهتين متباعدتين بعقد تحالف مع بركة خان مغول القبجاق الذي كان قد اعتنق الدين الإسلامي وكان على عداء مع ابن عمه هولاكو واستجاب بركة لدعوة الجهاد التي وجهها له السلطان بيبرس فهاجم هولاكو في إقليم فارس واشتبك معه في معارك حربية ضاربة وأضحى السلطان بيبرس في وضع طيب بعد أن تمكن بفضل تحالفه مع بركة خان من تجميد نشاط المغول ضد دولته في مصر والشام وذلك بإشغالهم في حروب داخلية وحرمان الصليبيين في الساحل من أية مساعدة خارجية الأمر الذي مكنه من توزيع نشاط له على الجبهتين الصليبية والمغولية معاً.

وعند دراسة جهاد قلاوون ضد المغول والصليبيين وأوضح البحث ما حدث عقب وفاة السلطان بيبرس من انقسام في صفوف المماليك بسبب إقدام السلطان المنصور قلاوون على عزل أبناء الظاهر بيبرس والذي كان ضرورة اقتضتها حركة الجهاد ضد المغول والصليبيين وقتئذ ، ومع ذلك فقد نجح السلطان المنصور قلاوون في احتواء تلك الخلافات وتوحيد الكلمة داخل دولة المماليك لمواجهة الأخطار التي تكالبت عليها من جراء ذلك الانقسام خاصة بعد أن وضح أن المغول قد أفادوا من تلك الخلافات وقاسوا بمهاجمة حدود دولة المماليك من الناحية الشمالية الشرقية في محاولة منهم للانتقام لهزيمة جيوشهم في صحراء إبلستين فقد برهنت الدراسة على السياسة الحكمية التي اتبعها السلطان قلاوون مع الأمير سنقر الأشقر ومن انضم إليه من الأمراء المماليك لتهدئة الأمور معهم مؤقتاً ريثما يتم له تجنيب دولته محنة الهجوم المغولي عليها حيث خرجت قواته من الأراضي المصرية والتقت بقوات سنقر ورفاقه ووقفت صفاً واحد لمواجهة المغول وأنزلت بهم هزيمة ساحقة في معركة حمص والتي نتج عن انتصار المسلمين فيها تخليص بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي، بعد أن لقنوهم في هذه المعركة درساً لن ينسوه وأوضحت الدراسة أن انتصار المماليك في معركة حمص أحدث تحولاً جذرياً في علاقة المغول في فارس بالدولة المملوكية، إذ أقدم كبار الأمراء المغول على اختيار السلطان المسلم أحمد تكدار ليلي

عرش الإيلخانية بعد وفاة والدة أبغا الذي توفي عقب هذه المعركة مباشرة، وكان مرده شعورهم المتزايد بأن دولتهم عاجزة من جراء الهزائم المتلاحقة التي منوا بها عن مواجهة دولة المماليك في الشام ومصر، وقد حرص السلطان أحمد تكدار على أن يبدأ عهده بإقامة علاقات طيبة مع المماليك قائمة على أساس احترام مبادئ الدين الإسلامي ومواجهة أعدائه، وكان من الممكن أن توقف هذه العلاقة الطيبة العداء بين الدولتين الجارتين ليتحقق للإسلام والمسلمين من خلالها فترة من التقدم والانتشار فيما لو استمر الإيلخان أحمد فترة طويلة من الزمن على العرش الإيلخاني ولكن وفاته مقتولاً سنة ٦٨٣/١٢٨٤م قضى على تلك الآمال حيث أقدم الإيلخان الجديد أرغون على نصف كل الجهود الذي بناها أحمد للتقارب بين دولة المغول في فارس والمماليك في مصر والشام.

وبرهنت الدراسة على أن هذا العمل الجليل قد شجع السلطان قلاوون على المضي قدماً في الرد الصليبي من آخر معقل لهم في الشرق الإسلامي مدينة عكا، ورغم أن القدر لم يمهله حتى ينال الشرف العظيم حيث توفي أثناء استعداده لمهاجمة عكا فقد قام ابنه الأشرف خليل من بعده بتنفيذ تلك المهمة ودق آخر مسمار في نعش الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي محققاً بذلك آمال وطموحات سلاطين المماليك

الذين حملوا لواء الجهاد منذ بزوغ نجم دولتهم وحققوا للإسلام والمسلمين أعظم انتصار شهده التاريخ ضد المغول والصليبيين.

وإلى جانب هذا فقد أثبتت الدراسة جدوى اهتمام المماليك بإحياء فكرة الجهاد وغرسه في نفوس رجالهم على اعتبار أنه فرض عين على كل مسلم مستطيع لا يقل عن كونه ركناً من أركان الإسلام، وكذلك الحال بالنسبة لنظام الإقطاع الحربي الذي اتخذ منه سلاطين دولة المماليك وسيلة للصرف على جيوشهم بمختلف عناصرهم حيث قاموا بتوزيع أراضي مصر والشام على شكل إقطاعات بين أمرائهم وقادة جيوشهم ومقابل التزامات حربية وخدمات مدنية يؤديها المقطع وضمنوا بهذا النظام حصولهم وقت الحرب على جيش منظم مزود بكافة متطلبات القتال.

كما أوضحت الدراسة مدى ما وصل إليه سلاطين دولة المماليك من تقدم في وضع التنظيمات العسكرية البارعة لجيوشهم، إذ اتبعوا في جهادهم ضد المغول والصليبيين خططاً عسكرية متنوعة منها ما كان يقوم على أساس الاشتباك مع العدو في معارك مكشوفة على شكل تعبئة قتالية مكونة من المقدمة والمؤخرة والقلب والجناحان ومنها ما كان يعتمد على أساليب الكر والفر والخداع والتمويه ونصب الكمائن وغير ذلك فضلاً عما قامت به فرق من جيوشهم من أعمال فدائية كان الهدف منها إنهاك العدو وكشف خططه.

وأخيراً يمكن القول أن سلاطين دولة المماليك قطز وبيبرس قلاوون وابنه الأشرف خليل حققوا أحلام زعماء الجهاد ضد الصليبيين عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم باقتلاع الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من جذوره، فضلاً عما قاموا به من جهود جبارة في مواجهة الغزو المغولي المدمر على بلاد المسلمين وعليه فستظل مكانتهم إن شاء الله في تاريخ الجهاد ضد أعداء الإسلام عظيمة خالدة أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.



المصادر والمراجـــع

أولاً : المصادر العربية

الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠/٢٢٤هـ):

- تاريخ الامم والملوك ، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٤٠٧هـ.

البلاذري، أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٩٧هـ/٨٩٢م):

- فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٧م.

الكليني ، محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت٣٢٩هـ/٩٤٠م):

- الكافي، دار الكتب الإسلامية، إيران، ١٣٥٦م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م):

- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢،دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، ٣ أجزاء.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إدريس الشريف (ت٥٥٩هـ/١١٦٦م):

- نزهة المشتاق في اختراق الافاق،عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٨٩م.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي (ت٦٢٦ هـ/١٢٢٩م):

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.٥ أجزاء

اليعقوبي ،أحمد بن إسحاق:

-تاريخ اليعقوبي،دار صادر،بيروت،(د.ت)

ابن الأثير، علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

- الكامل في التاريخ، بولاق،القاهرة، ١٢٩٠هـ، ١٢جزء.

ابن العبري، غريغوريس الملطي (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م):

- تاريخ الزمان، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
- تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالح، دار الرائد اللبناني، ط٢، ١٩٩٤م.

أبو شامة، عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٨م):

- الذيل على الروضتين المعروف بتراجم رجال القرنين السادس والسابع، تحقيق: عزت العطار الحسيني الدمشقي ،القاهرة، ١٩٤٧م.

أبو الفضائل،المفضل (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م):

- النهج السديد والدر الفريد في تاريخ ابن العميد، دار صادر، بيروت،(د.ت).

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،تحقيق احسان عباس، دار الثقافه، بيروت، ١٩٨٦م.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.

ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم أبو عبد الله (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م):

- تاريخ الملك الظاهر بيبرس، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، قيسبادن، ١٩٨٣م.

ابن عبد الظاهر، محي الدين عبدالله بن رشيد الدين بن عبدالظاهر السعدي المصري (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م):

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق كامل مراد ، القاهرة، ١٩٦١م.

ابن منظور، أبو الفضائل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م):

- لسان العرب، دار صادر،بيروت،(د.ت).

الهمذاني، رشيد الدين فضل الله (ت٧١٨هـ/١٣١٨م):

- جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق ،نشأت وزارة الثقافة والارشاد القومي،القاهرة،١٩٦٠م.

ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد الصابوني (ت٧٢٣/١٣٢٣م):

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، حققه: بشار عواد، وعماد عبدالسلام رؤوف، بغداد، ١٣٥١هـ.

بيبرس ، الداوادار ركن الدين بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م):

- التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، لبنان، ١٩٨٧م.
- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة،تحقيق دونلدس س.ريتشاردز،النشرات الاسلامية،بيروت،١٩٩٨م،ج٩.

- تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية، تحقيق: عبدالحميد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- مختار الأخبار،تحقيق عبدالحميد صالح حمدان،دار المصرية اللبنانية،القاهرة،١٩٩٣م.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح، موسى بن أحمد بن قطب الدين البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م):
- ذيل مرآة الزمان،دار المعارف الإسلامية،الهند،١٩٥٤م.

العسقلاني، شافع بن علي الكاتب (ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م):
- الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور،تحقيق عمر عبدالسلام تدمري،المكتبة المصرية،القاهرة،١٩٩٨م.

عباس، شافع بن علي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م):
- حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، عبدالعزيز بن عبدالله خويطر، الرياض، ١٩٨٩م.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت٧٣٢هـ/١٣٣١):
- المختصر في أخبار البشر، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٦م.
- تقويم البلدان،دار الطباعة السلطانية،ط باريس ،١٨٤٠م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (٧٣٢هـ/١٣٣١م):

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة،١٩٦٣م. تحقيق مفيد قميحة،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٤م.
- تاريخ مجموع النوادر،تحقيق هنورست هاين ، دار الكلارس سفار يستبرلين،٢٠٠٥م.

الذهبي،شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م):
- العبر في أخبار من غبر،تحقيق: صلاح الدين المنجد،الكويت،١٩٦٦م.
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: خيري سعد، د، المكتبة الوقفيه،القاهرة، (د،ط)، (د.ت).
- تاريخ دول الاسلام ،حققه بشار عواد معروف،دار الغرب الاسلامي،١٤٢٤هـ،١٧جزء.

ابن فضل الله، أحمد بن يحيى بن فضل العمري الملقب بشهاب الدين (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م):
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ):

- الوافي بالوفيات،تحقيق صلاح الدين خليل بن أيبك ، دار احياء التراث العربي،٢٠٠٠م،٧ أجزاء.

الكتبي،محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م):

- عيون التواريخ، تحقيق: عفيف حاطوم، دار الثقافة،١٩٩٦م.

اليافعي، عفيف الدين أبي السّعادات، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م):

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان،دار الكتب العربية،بيروت،١٩٩٧م.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م):

- البداية والنهاية، ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.

ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك (عاش في القرن الثامن الهجري):

- كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: صلاح الدين المنجد وسعيد عاشور ، القاهرة، ١٩٦١م،٩ اجزاء.

ابن الفرات،ناصر الدين محمد عبدالرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م):

- تاريخ الدول والملوك تحقيق: قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت،١٩٣٨م.

- تاريخ ابن الفرات،المجلد الرابع في قسمين،تحقيق: حسن محمد الشماع، البصرة،١٩٧٩م،المجلد السابع والثامن، تحقيق: قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت،١٩٣٩م.

ابن خلدون،عبدالرحمن محمد(ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م):

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بولاق، القاهرة، (د.ت).

- تاريخ ابن خلدون، تحقيق: علي عبدالواحد وافي،ط٣، القاهرة،١٢٨٤هـ..

ابن دقماق،ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي(٨٠٩هـ/١٤٠٦م)

-الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين،تحقيق محمد جمال الدين عز الدين علي،عالم الكتب ،بيروت،١٩٨٥م.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت٨٢١هـ/١٤١٨م):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، ١٩٨٣م.

الأقسرائي، محمود بن محمد بن إبرهيم بن أحمد الملقب ببدر الدين (ت ٨٢٥هـ):

- مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار ،كوشش عثمان توران،طهران ،١٣٦٢م.

المقريزي، أحمد بن علي عبدالقادر (ت٨٤٥/١٤٤١م):

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٦م.
- خطط المقريزي، المعروف: باسم المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد،الفرقان لتراث،لندن،١٩٩٥م.

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي (ت١٨٥ هـ/١٤٤٧م):

- طبقات الشافعية الكبرى.صححه الحافظ عبدالحليم خان ،بأعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية ،حيدراباد،١٩٧٨م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن عباس بن عساكر الكناني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):

- إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: محمد عبدالحميد خان،دار الكتب العربية،بيروت،١٩٨٦م.

العيني، بدر الدين محمود أبو محمد بن أحمد (ت٨٥٥هـ/١٤٥٢م):

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة،١٩٩٢م.

ابن شاهين الظاهري،غرس الدين خليل (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م):

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق: بولس روايس، مطبعة الجمهورية، باريس، وأعادت نشره دار العرب، للبستاني، ١٩٨٩م.

ابن تغري بردي،جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٨٩٦م):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين، المؤسسة المصرية العامة، (د.ت).

- الدليل الشافي على المنهل الصافي ،تحقيق فهيم محمد علوي شلتوت،دار الكتب والوثائق القومية،١٩٩٨م،٢مجلد.

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م):

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٨٤م.

الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت٩٦٦هـ/١٥٥٨م):

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، القاهرة، ١٨٦٦م.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري أبو الفلاح (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

المجلسي ، محمد باقر (ت١١١١هـ/):

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمه الأطهار، مؤسسة دار الوفاء، بيروت، ١٤١٤هـ، ج٦٣م.

ابن بيبي، (ت):

- الأوامر العلائية في الأمور العلائية، تحقيق: هوتسما، ١٩٠٢م.

سهيل زكار:

-الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٩٥م.

ثانياً : المراجع العربية

أحمد شلبي :

-الجهاد والنظم العسكرية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٤م.

أحمد مختار العبادي:

-قيام دولة المماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ.

-تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩١٨م.

أسد رستم (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م):

- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، منشورات المكتبة البوليسية، ط٢، بيروت، ١٩٥٦م.

بسام العسلي:

-الظاهر بيبرس،دار النفائس ،بيروت،١٩٩٢م.

حسن الباشا:

-الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دارالنهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.

حكيم،أمين عبدالسيد:

- قيام دولة المماليك الثانية،القاهرة،١٩٦٧م.

جمال الدين سرور:

- دولة بني قلاوون في مصر ودار الفكر العربي،١٩٤٧م.

- دولة الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده ،القاهرة،١٩٦٠م.

راغب السرجاني:

- قصة التتار من البداية الى عين جالوت،(د.ط)،(د.ت).

رجب محمد عبدالحليم:

-انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).

سعد الغامدي:

- المغول بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية،الرياض،(د.م)،١٤١٠هـ.

سعيد عبدالفتاح عاشور:

-الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣م.

- أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤م.

- العصر المماليكي في مصر والشام، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، النهضة العربية، بيروت، (د.ت).
- الظاهر بيبرس،القاهرة،١٩٦٣م.

سهيل طقوش:

-تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧م.

السيد الباز العريني:

-تاريخ المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٧م.

شوقي عبدالقوي عثمان حبيب:

-التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك، المجلس الأعلى الثقافي، القاهرة، ٢٠٠٢م.

شلبي،أحمد:

- الجهاد والنظم العسكرية ،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،١٩٧٤م.

عادل إسماعيل محمد هلال:

-العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، ١٩٩٧م.

عبدالسلام عبدالعزيز فهمي:

-تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة، دار المعارف،١٩٨١م.

عبدالقادر أحمد يوسف:

-العلاقات بين الشرق والغرب، المكتبة المصرية، صيدا، (د.ت).

عبدالمنعم صبحي:

-الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين،دار العربي،القاهرة،١٩٩٢م.

عبدالله جاسم على آل ثاني:

-العلاقات السياسية بين المغول ومملكة ارمينية الصغرى، دار العلوم العربية، بيروت، ٢٠٠٧م.

عبدالمؤمن بن عبدالخالق البغدادي:

-مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنه ،المحقق علي محمد البجاوي،دار المعرفة،بيروت،١٩٥٤م.عدد المجلدات ٣ .

عصام شبارو:

-السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤م.

الفقي،عصام الدين عبدالرؤوف:

- المشرق الاسلامي بعد العباسيين ،شركة سفير،القاهرة،(د.ت).

فايد حماد عاشور:

-العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية، القاهرة،(د.ت).

فؤاد عبدالمعطي:

-المغول في التاريخ، وزارة الثقافة والارشاد القومي،القاهرة،١٩٦٠م.

-الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين أسرة هولاكو خان، مركز الوثائق والدراسات الإسلامية،جامعة الكويت،١٩٨٧م.

قاسم محمد مزعل عثمان:

-الجيش المغولي، دائر المكتبة الوطنية، الأردن، ٢٠١٢م.

محمد جمال الدين سرور:

-دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).

-دولة الظاهر بيبرس في مصر ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١م.

محمد كرد علي:

-خطط الشام، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٢م.

محمد مراد مكي الرمزي (ت١٣٥٣هـ/١٩٣٥م):

- تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ١٩٠٨م.

محمد مؤنس عوض:

- تاريخ الحروب الصليبية،دار النهضة العربية ،القاهرة، ٢٠٠٤م.

محمود شلبي:

- حياة الملك الظاهر بيبرس ،دار الجليل ،بيروت،١٩٩٢م.

منير الخوري عيسى اسعد:

- تاريخ حمص، ف٢، مطرانية حمص الأرثوذكسية، ١٩٨٤م.

نظير حسان سعداوي:

- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، منشورات مكتبة النهضة العربية، ١٩٦١م.

نعيم زكي فهمي:

-الطرق التجارية الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٣م.

يوسف حسن غوانمة:

- معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج،دار الفكر ،بيروت،١٩٩٥.

ثالثاً: المصادر والمراجع المترجمة إلى العربية

إدوار جرانفيل براون:

-تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدى، ترجمه إلى العربية: إبراهيم امين الشواربي، القاهرة، ١٩٥٤م.

أرنولد توماس:

-الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،١٩٧٠م.

بارتولد شبولر:

-العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢م.

ستيفن رينسمان:

- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية،١٩٦٩م.

سيديو:

- تاريخ العرب العام، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٨٤م.

بارتولد:

- تاريخ الترك في آسيا الصغرى،ترجمة أحمد السعيد سليمان ،الهيئه المصرية العامة للكتاب ،القاهرة،١٩٩٦م.

لامب:

- شعلة الأسلام ،ترجمة محمود عبدالله ،مكتبة المتنبي ،بغداد،١٩٦٧م .

رابعاً: الرسائل العلمية

-فايز نجيب إسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبية ودولة المماليك الأولى، رسالة دكتوراة مقدمة لكلية الآدب، جامعة الإسكندرية،١٩٨٠م.

-عبدالله سعيد الغامدي:جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، أم القرى، ١٤٠٧هـ.

خامساً : الدوريات والمؤتمرات العلمية

- حياة ناصر الحجي: العلاقة بين دول المماليك ودولة مغول القبجاق، حولية كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثانية،١٩٨١م.

- أحمد حطيط: المدلول التاريخي لنصوص الهدن المعقودة بين المماليك والفرنجة، مجلة التاريخ العربي، مقالة منشورة بتاريخ ربيع ١٩٩٩، العدد١٠، على الرابط: www. attarikh. alarabh. ma/menu. http;//html

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

Abstract

This research talk about Homs battle between the Mamluks and the Mongols (680 AH / 1281AD) causes, events and results.

This research contains four chapters. And the introductory chapter talked about the importance of the establishment of the state of Mamluks in the Battle of Ain Jalut and the defeat of the Tatars in this battle.

The first chapter contains an overview of the political conditions of the State of Mamluks and the Mongols and the Kingdom of Minor Armenia before the Battle of Homs. The Mamluks state marine conditions in the reign of Sultan Baybars, foreign policy, and also the external relations of the Mongols against the Mamluks and the position of Baybars, then the death of Baybars and the emergence of Qalawun and results.

The second chapter contains the indirect causes and direct causes of the Great Battle of Homs. And also follow developments.

The third quarter display battle Homs Greater How did the events, was addressed efforts Qalawun in uniting the Muslim, then an alliance between Mongols and Armenians and its consequences, then geographical of Homs, then the clash between the lateral and its consequences, and then moves of the Islamic Army, then the status of each of the military Mamluks and Mongol, then engagement with the Mongols, then the conditions of Damascus and Egypt during Homs battle, then an attitude of the defeat, and finally what was said in the poetry about the battle of Homs.

The fourth quarter was study the reasons for the victory of the Muslims at the Battle of Homs and the results of this victory.